عبقرية خالد

عباس محمود العقاد

« طبعة جديدة منقحة ومراجعة »

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

العـــنـــوان: عبقرية خالد.

المـؤلـــــف: عباس محمود العقاد .

إشــراف عــام: داليـا محمـد إبراهيـم .

تاريخ النشــر: الطبعة الثامنة ـ يونيو 2005م .

رقــم الإيـداع: 2003/ 20999

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2558-7

الإدارة العامة للنشــر: 21 ش أحمد عرابي ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864(02) فاكس:3462576(02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) ـ 8330289 (02) ـ فـــاكس: 8330296 (02)
البـريد الإلكتــروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة -
القــاهــرة - ص . ب : 96 الفجـالـــة - القــاهــرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) ـ فـــاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد الســلام عـــارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

بسم الله الرحمن الرحيم

١ البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية فى صدر الإسلام .

وكان يلى خراسان لملوك الدولة الأموية . فخرجت بها خارجة أهمته ، فقيل له : «ما يهمك منهم ؟ . . . وجه إليهم وكيع بن أبى مسعود فإنه يكفيكهم» . فأبَى ، وقال : «لا . . . إن وكيعًا رجل به كبر يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة . . .» .

وهذه كلمة من كلمات القائد العربى تنبئ عن كثير :

تنبئ عن ملكة القيادة فيه ، وتنبئ عن ملكة السيادة فى الأمة التى نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم فى الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء . . .

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعًا ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوته وسبر قوة خصمه . وكل ماعدا ذلك فإنما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التى ينازلها أن تصنعه ، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين فى المكان الذى يتلاقيان فيه . . .

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة : منها ضعف العقيدة واختلال النظام ونقص القيادة ، وانحلال الترف وتفرق الآراء ، ولكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل . فانتصر العرب ؛ لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار ، وكان الاستخفاف والإهمال شرًا على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفزع ، بل كان الاستخفاف والإهمال سببًا لانقلابهم آخر الأمر إلى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت فى الأعضاد ، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان . . .

كانت دولة الفرس لا تنظر إلى البادية العربية إلا نظرة السيد المبجل إلى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون إمَّا إلى العطاء وإمَّا إلى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث إلى النبى العربى بشرذمة من الجند تأتيه به فى الأصفاد ! . . . وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب فى معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة . فاتفق فى بعض وقعات العراق أن زعيمًا عربيًا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسى مهران بن بهرام ؛ ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده . فقال له : «إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدًا» ، فجاراه القائد الفارسى مجاملة وخدعة ؛ ليستخلص منه أقصى العون والنجدة ، وقال له : «صدقت لعمرى! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم . . . فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون فى صفوفهم ، وسألوه : «كيف تقول ما قلت لهذا الكلب ؟» . . . فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم ، وقال لهم : «دعونى ، فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم . . . فإن كانت لهم على خالد فهى لكم . وإن كانت الأخرى لم يبلغوكم ـ أى المسلمون ـ حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون . . .» .

وسخفوا فى طلائع وقعة «أليس» فلم يحفلوا بجيش خالد الزاحف إليهم وتنادوا إلى طعامهم الذى هيأوه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق . . ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام .

أما الروم ، فكان لهم غرور كهذا الغرور فى مواجهة البادية العربية ، وكان قصارى ما حذروه فى أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم إلى الصحراء . . فإن أوغلوا فى بلاد الدولة الرومانية ، فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس إليهم ، فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها إذا هى تنقلب من الغفلة الشديدة إلى الفزع الشديد . . .

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم .

فلا يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ،

ويحسبون هذه الغلبة شيئًا قد حصل وكان ينبغى ألاَّ يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار . .

وبعضهم يلتمس العلة ، فيقول : «إنما هى وهن الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال» ، أو يلتمس العلة ، فيقول : «إنها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة» .

وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه . . .

فالمصادفة لا محل لها فى حوادث الوجود ، ولا تطرد فى قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين إفريقية والصين .

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ، ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين .

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها هى وحدها لا تغنى عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد . وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادى حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ . . . وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[التوبة ٢٥].

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه الحقيقة هى أن المسلمين كانوا أيضًا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وإن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الإسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها المؤرخون الأوربيون ، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشى[١] منهم العرب والمسلمين . . .

* * *

(١) نحاشى : أى نستثنى .

فالصورة الشائعة فى خيال أكثر القارئين عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن إلا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسى والمقاليع ، لا ترجع إلى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ، ويتلقاه اللاحق عن السابق ، وقوام أمرها شراذم من السطاة[1] والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار .

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها فى اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة .

فمن الخطأ «أولاً» أن تستخف بالرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات ، حتى لو صح أنها كانت هى كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال .

فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التى تشترك فيها القبائل أبدًا بين عادية ومعدو عليها ، وأن البدوى قد عاش زمنًا كما جاء فى التوراة «يده على كل إنسان ويد كل إنسان عليه» . فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى «حاسة الحرب» أو أهبة الميدان الخالد التى لا تفارقه فى ليل ولا نهار . فلا يزال حياته فى حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذى يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار .

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى ، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدى فى مكان العمل ، ثم يطرح عن العاتق فى سائر الأوقات .

ومن الرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الإدبار ؛ لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة فى كل وقعة يخوضون غمارها ، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع فى روع صاحبها أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم . فهو فى حالة صالحة لاستئناف القتال إن أقبل وإن أدبر ، وسواء طمع فى النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر ليتقدم فى حينها أو بعد حين ، ويتحول إلى الوراء كما يتحول إلى الشمال أو اليمين ، طوعًا لأمر مقصود وجريًا فى عنان ممدود ، ومن هنا تيسر لقواد العرب فى الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش

(١) السطاة : الذين يرتكبون السطو .

المنهزم فى سويعات معدودات ، وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل .

ولن تخلو العصابات المغيرة - مع طول المرانة - من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والإفلات ، وهى على بساطتها أصول لا ندحة عنها فى أكبر الميادين وأصغرها على السواء .

هذا إن صح أن حروب العصابات هى كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال فى تاريخهم القديم .

وذلك غير صحيح . .

فالعرب قد عرفوا فى حروبهم التى وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام ، وقيل إن جيش الغساسنة الذى حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفًا بين راجل وفارس ، وكان فى الجيش معًا راكبو الخيل ، وراكبو الإبل ، وحاملو السيوف ، وحاملو الرماح ، والضاربون بالسهام والنبال ، والضاربون بالحراب والحجارة .

***

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة إلى الميادين القريبة ، ولكن القبائل التى لم تكن على شىء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التى تساوى فى عددها بعض جيوش القتال فى عصرنا الحديث ، فاستعدت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثانى بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة ما هو محتوٍ لكل عناصر الكفاح الأولى فى كل زمان .

على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب ، كما علمته دول الحضارة فى عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهم فى الفرق المتطوعة على حالى الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحيانًا كتيبتان من الجيش الفارسى هما الشهباء والدوسر أو «الدوشير» بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية ، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربى إلى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التى يحتاج إليها فى تعبئة الجيوش وللفطنة إلى المخاوف التى يتقيها فى مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة .

وقد تبين هذا فعلاً فى وقعة ذى قار التى تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية ، فإن العرب كانوا فى تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية ، لم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية ؛ بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم إلى ميمنة تولاها بنو عجل ، وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هانئ بن مسعود ، وأنفذوا إلى قبائل العرب الذين فى جيش الفرس رسلاً يثيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلى عن أصحابهم حين يجد الجد ويلتحم الجيشان ، فوافقتهم إياد وبرت بوعدها فولت من الميدان فى أحرج الأوقات . . .

❋ ❋ ❋

ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة ، فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية ، بل تشاوروا فى أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه «مجلس الحرب» فى اصطلاح هذه الأيام . فقال ربيعة بن غزالة السكونى : «لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا كراديس فإذا أقبلوا على كردوس شد الآخر» . وقال حنظلة بن ثعلبة : «إن النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم ، فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ، وابدأوهم بالشدة» . وقال يزيد بن حمار : «أكمنوا لهم كمينًا» ففعلوا وأكمنوه فى موضع يقال له الخبىء ، وأوصوه أن يظهر حين يشتد القتال بين العسكرين وتفر قبيلة إياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم وإقبال المدد إلى خصومهم مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات .

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية ، فعمد حنظلة بن ثعلبة إلى وضين راحلة امرأته - أى حزامها - فقطعه ، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعًا فسقطت على الأرض ، وصاح بقومه : «ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته . . وراح السيَّافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف ، وتسابق الخطباء والشعراء فى التذمير والتحريض فذهبوا جميعًا يرددون قول قائلهم : «المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره» .

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ، ثم التحم الفريقان وحمى الوطيس ، وظهر

الكمين فى أوانه وولت إياد ، فتبعها فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التى فوجئوا بها على غير رقبة ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش العربى كله فحقت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين ، وكتب النصر لأولى الفريقين به فى ميزان الفن العسكرى الذى يشمل جميع المرجحات ، ماعدا المرجح المادى دون غيره ، وهو العدد والسلاح .

إذ الحقيقة أن غلبة العرب فى يوم ذى قار إنما كانت غلبة لليقظة على الغفلة ، وللكفاية على العجز ، وللخفة على الفخامة ، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر فى الحروب القديمة والحروب الحديثة ، إلا تفوق الفرس فى بعض العدد التى لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف .

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللاً فى خطتهم لم يلتفتوا إليه ، أو يحصى عليهم وجهًا من وجوه التدبير قصروا فيه ؛ لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للقاتل :

(١) أهبة الاستطلاع . (٢) رسم الخطة . (٣) تنظيم الجيش فى مواقفه . (٤) تنظيم الجيش فى حركاته . (٥) إذكاء العزيمة فى نفوسه . (٦) إضعاف العزيمة فى نفوس خصومه . . وهذه كلها هى صفوة لباب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة ، وفى جميع العصور إلى آخر الزمان .

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم فى أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغًا فيها على الأقل فى ميادين الاشتباك والالتحام ، إذا صح أن لها الرجحان فى مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد ؛ لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة ، وكانوا يخلعون عنهم شكتهم تبرمًا بها وتخففًا من ثقلها ولا سيما فى أيام القيظ أو فى المواضع الوعرة التى تصعب فيها حركة المدرعين فى الشكة السابغة ، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدمًا لهم ؛ ليحملوا لهم شكتهم إلى حين الحاجة إليها ، وجاء فى كتاب فيجتيوس Végétius إنجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنود كانوا يضيقون ذرعًا بالدروع المعدنية ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها ، ولم تكن لهم حاجة بها إلا حين يرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة ، لأداء عمل من الأعمال .

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معًا بنشأتهم فى البادية واقترابهم من دول الحضارة ، ونعنى بهما طريقة العصابات وطريقة الجيوش فى إدارة الحروب .

فهم قد برعوا فى حرب العصابات بالمرانة الطويلة ، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك إحدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما فى موضعها ، فأضافوا سرعة العمل فى طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم فى طريقة الجيوش . . وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذى لا يحسنون التجديد فيه . .

ومن المحقق أن قبائل العرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين ، إما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل قريش التى كانت تقيم فى عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية ، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ؛ لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التى يدين بها جميع هؤلاء .

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة ؛ لنعرف موقع العدل والإنصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التى تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية .

* * *

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر ؛ لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هى قد انتصرت ؛ لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التى لا مصادفة فيها ولا محاباة ، ولا محل لفلتة نادرة لا تقبل التكرار . . .

وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة ، فتمت فى أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها .

كانوا متفرقين بغير باعث على الوحدة والنهوض ، فجاءتهم الدعوة الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم فى سبيلهم . فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر فى شرعة الأرض والسماء ، وعلم النبى عليه السلام بيوم «ذى قار» وهو يدعو العرب إلى دين التوحيد ، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم ، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام ، وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعًا عمًا قريب .

٢ قريش ومخزوم

كانت قريش موئل الثقافة من أنحاء الجزيرة كلها بين حاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها إلى حديثها .

لأنها كانت وسطًا بين الحضارة والبداوة ، وكانت تقيم فى عاصمة الحجاز وإلى جوار الكعبة التى يحج إليها العرب ، تبركًا بحرمتها ولياذًا بأصنامها ويحملون إلى أسواقها أزواد الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون إليها أزواد القوت وسلع التجارة .

وكانت قريش تنتقل إلى بلاد العرب كما ينتقل العرب إليها من بلادهم ، فكان لها رحلتان فى الشتاء والصيف ؛ إحداهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام ، وكانت تضيف إلى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس ، حيثما نزلت فى طريقهما من ديار العرب أو من ديار الروم والحبشة ، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها .

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايا ؛ لأن الاستطلاع من طبيعة سكان الصحارى ، وتتوقف سلامتهم أحيانًا على خبر يعلمونه فى أوانه ، كما تستهدف أرواحهم أحيانًا للخطر العظيم من جراء طارئ داهم تفوتهم الحيطة له فى حينه ، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم المأثور بالسير والأخبار لغير هذه الضرورة التى يدعوهم إليها حب الأمن والسلامة . فهم غيورون على تراث الآباء والأجداد تفاخرًا بالنسب العريق ، وتصحيحًا للعلاقات ، وتمييزًا للأقربين والبعداء . .

ومع هذا الولع الأصيل فى الطبيعة العربية باستقصاء الخبر ، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشًا تجهل شأنًا من شئون الثقافة العربية ، وهى تقيم فى مثابة الجزيرة كلها وتسهر على عاصمة العرب ، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله إلى جنوبه ومن جنوبه إلى شماله ، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهى فى مرقبها الذى تطل منه كل ما يعنيها . . .

فقلما غاب عنها علم عربى وصل إليه أبناء الحواضر والبوادى باجتهادهم واختبارهم ، أو وصلوا إليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية .

وقلما خفى عنها فن من فنون ثقافة العرب فى مصالح السلم والحرب ، أو معارض السياسة والشئون الاجتماعية .

ونظن أن خطأ المؤرخين فى تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطئهم فى تقدير معارفهم الحربية ، وقد كانت كما رأينا كفؤًا لحضارة الدولة الفارسية وتجارب قوادها وأساورتها .

وكذلك كانت لهم فى السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ إلى بواطنها ، فهى لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية ، ولكنها كذلك لا تنزل إلى الفوضى ولا إلى الغريزة الهمجية التى لا مساك لها ولا تدبير فيها .

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية أن العالم القديم لم يعرف قط نظامًا من أنظمة الحكم إلا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجرى على عاداتهم وخلائقهم .

عرفوا نظام الإمارة التى ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه .

وعرفوا نظام الإمارة التى يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل فى قضايا الرعية بمعونة ذوى الرأى منها «إلا أن يكون غزو أو قتال» فهو باسم الملك دون غيره ، وهو النظام الذى جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبه زيد بن حماد من بنى أيوب .

وعرفوا نظام الإمارة التى يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنها إلى الموطن الذى تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين . وعلى هذه السنة ، اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وأكل قويهم ضعيفهم ، فقال شيوخهم : «لا نستطيع دفع ذلك إلا أن نملِّك علينا ملكًا نعطيه الشاة والبعير ؛ فيأخذ للضعيف من القوى ، ويرد على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، ولكنا نأتى تبعًا فيختار لنا» . فقصدوه فملك عليهم حجرًا أمير كندة ، وهو أبو امرئ القيس الشاعر المشهور .

وعرفوا الحمايات على أنواعها ؛ حماية الإمارة التى تستعين بجيش أجنبى ، وحماية الإمارة التى تعتمد على جيشها ، وحماية الإمارة التى تدين لدولة واحدة ، أو تدين لدولتين . كما حدث ذلك فى ملك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد .

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة إلى نسب واحد ، ورئاسة الرحل الذين يرعون الإبل والشاء ، ورئاسة أهل المدر الذين يغرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم إلى موسم . .

* * *

وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها فى مواضعها وتقتبس منها ما هى فى حاجة إليه . ولكنها لم تأخذ بنظام الإمارة ؛ لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من إحداها ، ولم تتعرض لنظام الحماية ؛ لأنها بنجوة من سلطان الدول الأجنبية ، ولم يوافقها نظام أهل الوبر ولا نظام أهل المدر ؛ لأنها كانت وسطًا بين الحضارة والبداوة كما قدمنا ، وكانت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التى تقبل إليها حاجَّة أو متجرة وليست هى من عشائرها التى تقبل منها حكم الشيخ فى قبيلته على أية صفة من صفاتها .

فاختارت لها نظامًا فريدًا يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها ، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين ، وإنما يؤول الرأى الأخير فيه إلى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن فى القبيلة . ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشورى التى ترضى بالمجاملة وإن لم يكن فيها رضا بالحقيقة . إذ الحقيقة أن المرجع الأخير إلى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء ، كلما حزب الأمر وتشعبت الآراء . .

ومن زكانة الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الرئاسة القرشية التى يدين بها حجاج البيت الحرام وقُصَّاد مكة من الحضر والبادية ، وهى الدين واللغة والتجارة المشتركة .

فحفظوا مناسك الكعبة ، وجعلوا أسواقهم معرضًا للبلاغة الشعرية والخطب المروية ، وتعاهدوا على ضمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها ، أو اعتدى معتد على حقوقها .

* * *

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم ، فانتهى الشرف إلى عشرة بطون هم : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج ، وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها إلى قائدهم المختار ، وكانت لنوفل الرفادة وهى إعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة والحجابة واللواء ، وكانت لبنى أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى فى مهمات الأمور ، وكانت لبنى تيم الديات والمغارم ، وكانت لبنى مخزوم القبة وهى مجتمع الجيش والأعنة وهى قيادة الفرسان ، وكانت لبنى عدى السفارة ، ولبنى جمح الأيسار أو الأزلام ، ولبنى سهم الحكومة والأموال المحجرة ، وظلوا يتولونها جيلاً بعد جيل إلى ظهور الإسلام .

ولم يكن لهذه «الوظائف» الموزعة شأن واحد فى جميع الأوقات والأحوال ، بل كانت تعلو وتهبط على حسب الزعيم الذى يتولاها وعلى حسب القوة التى يكون عليها بيته عند ولايته إياها ، ولكننا إذا نظرنا إليها مجملةً وجدنا منها ما كان يقصد به «جبر الخاطر» والإرضاء .

وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الإدارية الثانوية فى حكوماتنا الحاضرة ، ولم تجد بينها «سلطات» فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات ، وهى السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار ، والسلطة السياسية لأمية ، والسلطة العسكرية لمخزوم .

من بنى مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد - بطل هذا الكتاب - وكانت نشأته فى أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها ، فلم يكن من أبوته أو عمومته إلا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية . . .

كان جده المغيرة بن عبد الله ، الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب إليه فيسمى المغيرة تشرفًا بالانتساب إلى الفرع الذى أناف على الأصول . . .

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد ؛ لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى .

وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقًا بمكةَ ثلاثًا لحزنها عليه . .

* * *

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت للضيافة يأوى إليه من شاء بغير استئذان .

وكان عمه أبو حنيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة ، كما أشار النبى عليه السلام قبل الدعوة الإسلامية . . .

أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين أذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات . فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم إلى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر إلى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل إهلالها على العالم بسنين .

ولقب أبو أمية زاد الراكب ؛ لأنه كان يكفى أصحابه فى السفر مئونتهم ، فلا يتزودون بزاد .

ويظهر أن بنى مخزوم هؤلاء كانوا فى ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها . ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية ؛ لأنهم كانوا ينافسون بنى هاشم وبنى أمية وبنى عبد الدار ، وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون فى جد واحد أقرب من الجد الذى يجمعهم ببنى مخزوم ، وهو مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين .

وقد تبينت رجاحتهم هذه فى مواقف كثيرة قبل الإسلام وبعده ، فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليمانى ، واشتركت قريش كلها فى بناء بقية الأركان . . .

وكان لبنى مخزوم وحدهم فى وقعة بدر ثلاثون فرسًا من مائة فرس لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد . . .

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة ، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والأموال ثم تشيل كفتهم مرجوحة فى ميزان الفخار . .

ولا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والخنزوانة بينهم وبين بنى عبد مناف حين تظهر النبوة فى هؤلاء ولا تظهر فيهم .

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل : «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف ؛ أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . . فمتى ندرك هذه؟» .

وإنما قال أبو جهل «بنو عبد مناف» ذهابًا إلى الجد الذى يجمع هاشمًا وأمية وعبد الدار ، كأنه يستعلى فى كبريائه أن ينافس هاشمًا وحدها دون أن يصعد إلى أبيها الذى يجمع بينها وبين غيرها .

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ويقول : «أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟» . ففى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] .

ونحن نعلم الآن أى عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية فى طريق الإسلام إذ نرجع إلى الآيات التى نزلت فى رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم فى آبائهم وأجدادهم ، فلم ينزل فى رؤساء قبيلة مثل ما نزل فى رؤساء هذه القبيلة ، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم فى ردود القرآن على أقوالهم ، وهى أقوى ردود عرفت فى السور المكية الأولى ، على ما جاء فى الآيات الكثيرة من سورة «ن» وسورة «المدثر» وسورة «الكافرون» عدا إشارات أخرى فى سورة «الحجر» و«عبس وتولى» .

* * *

وكل أولئك فحواه شىء واحد ، وهو أن بنى مخزوم باءوا بأسباب المحافظة على القديم جميعًا حين تصدى الإسلام لتبديل ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهذه الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين الإسلام والجاهلية فى وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد ابن الوليد الذى انتهى إليه شرف الرئاسة المخزومية فى ذلك الأوان .

والناس يختلفون فى تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ، ويصدقون فى تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تفاوت النقيض والنقيض ؛ لأن البيئة مستودع شامل يوجد فيه الحسن والردىء ويأكل كل منه على حسب مأتاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه .

فإذا قيل سيد من سادات قريش أو نموذج من نماذج القرشية الجاهلية ، جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات .

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والنعوت الوسطى التى تشيع فى هواء هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة فى الشذوذ والاستثناء .

فالغالب على هؤلاء السادة ، أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة ، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوى الأحلام فى علاج المشكلات وتدبير الحيل ومصانعة الناس والأيام .

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت إليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم منوطًا بعدة الحرب وقيادة القبيلة فى غزواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد .

* * *

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة ، والصرامة ، وقلة الرحمة ، والاستزادة من المال ، ومتع الحياة ، والتفاخر بالوفر ، والثراء ، وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التى كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار .

وقد وجد فى أسرة خالد من يكثر من الإقراض بالربا ، ومن يرى فى أموال الربا شيئًا من الدنس يقاربه فى أحوال ويستبعده فى أحوال أخرى .

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها ديون تحسب بالألوف لم يزل خالد يتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون ، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال ؛ عملاً بالقرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

وكذلك وجد فى أسرته من نَزَّه الكعبة عن أموال الربا وما شابهها ، فقال لقومه : «يا معشر قريش . . لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبًا ؛ لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد» .

وكلهم قرشى جاهلى من طبقة السادة وأصحاب المال .

فحين نقول إن خالدًا كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه إلى تلك الخلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التى لا غلو فيها من هنا أو هناك ، حتى نرى دلائل الزيادة فى خليقة من تلك الخلائق ، فذاك إذن خاصته التى يتميز بها بين قرنائه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الإجمال .

ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف إلى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع إنسانى وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص .

فقد كانت هذه القبيلة - على كثرة الأقطاب بين رجالها - مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة إلى ما بعد قيام الدولة العباسية ، إذ كان يقال لأبى العباس السفاح : إن المخزوميات رياحين العرب ، وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين .

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التى نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبى ربيعة . فقديمًا كانت الفروسية والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال .

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الإسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية فى عهد الجاهلية ، فصنع للإسلام وصنع الإسلام له الأعاجيب ، وكان مقياس العبقرية العربية فى عهدين متقابلين .

٣ نشأة خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة إخوة من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور وإناث ، ومنهم أختان . . .

وقد تقدم إجمال القول فى شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة . أما أبوه الوليد ، فقد كان الرأس بين الرءوس والزعيم بين الزعماء ، وكانت له فى بعض نواحى خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التى تجلَّت بعد ذلك فى عبقرية ولده العظيم .

كان أغنى أبناء زمانه فى صنوف الثراء المعروفة بينهم كافة ؛ الذهب والفضة والبساتين والكروم ، والتجارة والعروض ، والخدم والجوارى والعبيد ، وسمى من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش .

وهو الذى قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ .

ويروى سفيان الثورى أنه كان يملك ألف ألف دينار ، ويروى ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال .

ولكبريائه فى جوده أو جوده فى كبريائه ، كان ينهى أن توقد نار غير ناره فى منى لإطعام الحجيج .

وكان يأنف لنفسه فى الجاهلية أن يرى سكران ، على إباحة الخمر وشيوعها فى تلك الأيام ، فانتهى عنها بغير ناهٍ ، وقيل إنه قطع يد السارق على سبيل القصاص .

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول والإقدام ، ضربة من ضرباته فى موقف اللبس والتردد ترينا فيه أبا خالد قبل أن يعرف العالم ضربات خالد ، وذلك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيرًا لتلك الحرمة

التى كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلها بعضهم حفاة الأقدام ولم يقربوها قط بهدم أوعدوان ، فلما رأى وسواسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الأولى بيديه وهو يقول : «اللهم لم ترع . اللهم لا نريد إلا الخير» ، ومضى فى أثره الهادمون غير متهيبين .

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبى جهل أنه كان من أفقه الناس لمعانى الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب فى أيامه .

«قام النبى ﷺ فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبى ﷺ لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم ، فقال : «والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى . . ثم انصرف إلى منزله» .

فقالت قريش : «صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم . فأوفدوا إليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدخول فيه ، ومازال به حتى قام معه إلى مجلس قومه ، فقال لهم : «تزعمون أن محمدًا مجنون ، فهل رأيتموه يخنق قط؟ تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه تكهن قط؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر منى ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب ؟

يسألهم ويجيبونه : «كلا» ، فى كل سؤال .

حتى أعياهم أن يردوا كلامه ، فسألوه رأيه فى تفسير بلاغة القرآن ، ففكر ثم قال : «ما هو إلا سحر يؤثر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين . . . فذاك إذ يقول القرآن الكريم :

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾
فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ .

واختلف المفسرون فى تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم الذى قيل إنه نزل فيه .

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعى ، وأن الوليد بن المغيرة يوصف به ؛ لأن أباه ادعاه بعد ثمانى عشرة من مولده .

ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زنمة كان يعرف بها فى عنقه ، وهى اللحمة المدلاة ، ويخالفهم آخرون فيقولون إن الرجل الذى كان يعرف بهذه الزنمة هو الأخنس بن شريق ، وكان أصله من ثقيف وعداده فى زهرة .

وفى رواية أنه عليه السلام سُئل عن العتل الزنيم فقال إنه هو الفاحش اللئيم ، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير .

إلا أن الذى يعنينا فيما نحن بصدده أن الوليد لم ينسب قط إلى أحد غير أبيه المغيرة ، وأن المغيرة لم يكن بحاجة إلى استلحاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزوم وقريش عامة ، وأن شبه الوليد ببنى المغيرة ظاهر حتى فى بعض الفروع البعيدة . فإن عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة خالد بن الوليد ، وكان يشبهه أقرب الشبه كما يتفق فى أيامنا هذه كثيرًا بين أبناء العمات والأخوال ، وأن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم حتى لقب بريحانة قريش وسمى بينهم بالوحيد .

وعلى أية حال ، فقد نشأ خالد فى بيت الوليد بن المغيرة وهو سيد بنى مخزوم ، وأحد السادات المعدودين فى قريش ، وصاحب الكلمة التى يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح إليه من شرعة أو دين .

أما أمه فهى لبابة بنت الحارث الهلالية ، وهى أخت ميمونة أم المؤمنين زوج النبى عليه السلام ، وأخت لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس عمه ، وأخت أسماء بنت عميس التى تزوجها جعفر بن أبى طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم على بن أبى طالب ، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من ذوى الأخطار ومقاديم العشائر النابهين .

وندر فى بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بخالد وذويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه .

والأقوال فى سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهى إلى قول يمتنع فيه الخلاف . فمن المؤرخين من يقول إنه مات وله من العمر ستون سنة ، فإذا كان قد مات فى السنة

الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين للهجرة ؛ فقد ولد إذن فى السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة .

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به أن خالدًا كان صغير السن فى عام الفتح - فتح مكة - كما يفهم من تلقيب أبى سفيان له بالغلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه .

فقد كان أبو سفيان والعباس يرقبان عبور الكتائب والقبائل فى يوم الفتح ، فكان خالد بن المغيرة أول من مر فى بنى سليم . فسأل أبو سفيان : من هذا؟ قال العباس : هذا خالد بن الوليد ، فعاد أبو سفيان يسأل وهو يخفى حنقه : الغلام؟ قال العباس : نعم ، كأنه لقب كان معروفًا بين شيوخ قريش .

والرجل لا يقال له «غلام» وهو فى نحو السادسة والأربعين ، وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين إذا كان القائلون من رؤساء الشيوخ ، وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقى بحكم العادة والتردد على الأفواه . فإذا كان خالد بن الوليد يومئذ فى نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين ، فمولده على التقريب بين سنتى ثمان وعشرين وثلاثين قبل الهجرة .

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير ، وهى قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلبته عمر وكسره ساقه فى هذه المصارعة ، وإنما يتصارع الندان أو المتقاربان . وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ . .

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعًا إنما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلاً عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلاً عن سنة ثلاثين ، فيرجح إذن أن يكون مولده فى نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة ، ولا مانع إذن أن يصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى فى الرابعة عشرة مثلاً زميلاً له فى السادسة أو السابعة عشرة ، إذا كان مولودًا للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالدٌ ولاشك كذلك ؛ لأنه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه .

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر ، إذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان - فرسان قريش - فى

وقعة أحد التى أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم ، فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره .

وقد أسلفنا أن بنى مخزوم كان لهم فى الجاهلية أمر القبة والأعنة ، فالقبة هى خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال ، والأعنة هى الخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه «الوظيفة» الموكولة إلى قبيلته بين بطون قريش جميعًا هى آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه .

وفى أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا فى تصور ملامحه وسماته لقلة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهى فى الغالب مفيضة فى وصف أولئك الأبطال .

تلك القصة هى ما أشرنا إليه من المشابهة بينه وبين عمر بن الخطاب ، حتى كان أناس من ضعاف النظر يخلطون بينهما من قريب ، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض .

وخلاصتها أن علقمة بن علاثة لقى عمر بن الخطاب ليلاً فقال له : مرحبًا بك يا أبا سليمان . . ثم دنا منه فلم يميزه مع دنوه وسماع صوته برد السلام عليه ، فقال : عزلك ابن الخطاب ؟ فأجابه عمر : نعم . فمضى علقمة يقول : ما يشبع ، لا أشبع الله بطنه .

وأصبح عمر ، فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالدًا : «ماذا قال لك علقمة . . فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام ، وكرر عمر السؤال فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئًا . . . فقال علقمة كالموسع له من حرج : حلا أبا سليمان . . . ولم يفطن لغلطه ، حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث .

ومن هنا تفهم أن خالدًا كان طويلاً بائن الطول ، وأنه كان عظيم الجسم والهامة ، مهيب الطلعة يميل إلى البياض .

وغنى عن تواريخ المؤرخين - ولا جدال - أن خالدًا قد تعلم فى صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة ، ومن الصغائر العارضة التى زعم أناس أنها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب أنه صارعه كما تقدم ، فغلبه وكسر ساقه ، وهى صغيرة تنبئ عن دراية باكرة بفنون الصراع

والكفاح ، ولكنها لو لم تذكر فى مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسية على أنواعها ، وسرعته فى مأزق النزال إلى مصارعة أقرانه ومبارزيه واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك .

وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمدًا فى البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد . فقد جاء فى بعض الأحاديث أن خالدًا كان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الأعراب ويشتهونه ، وهو أغنى إنسان فى مكة أن يسيغ هذه الأكلة الأعرابية ، مع يساره وافتنان أهله فى الأطعمة الحضرية .

قال ابن عباس رواية عن خالد : إنه دخل مع رسول الله على خالته ميمونة بنت الحارث ، فقدمت إلى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئًا حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة ألا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه إن ذاقه . فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه . فسأله خالد : أحرام هو؟ قال : «لا ، ولكنه طعام ليس فى قومى فأجدنى أعافه . . .» قال خالد : «فاجتررته إلىّ فأكلته ورسول الله ينظر» . . .

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى فى كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثة ، وعلى سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب فى المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لأبناء الأعيان بمعيشة الترف واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة ، وهم أحرى بخدمة أنفسهم فى مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد الحروب .

وكان لخالد - ولا ريب - علم بالبادية العربية من غير هذا الطريق ، طريق الرياضة المقصودة إن صح ما رجحناه . فلعله سافر كثيرًا فى الجزيرة قبل الإسلام ، ولعله عرف فى تلك الأسفار دروبها العصية التى كان يطرقها من العراق إلى الحجاز ، ومن الحجاز إلى اليمن ، ومن نجد إلى الشام ، وبعضها كان يعتسفه على عجل بغير أدلاء .

ولم تكن بخالد ولا بإخوته حاجة إلى التجارة لكسب العيش وتحصيل المال ، إذ كان أبوه على تلك الثروة التى لا مزيد عليها فى البلاد العربية ، وكانت ثروته أشبه شىء فى عصرنا هذا بثروة المصارف التى تعمل فى صفقات القروض والربا

ومضاربات الأسعار . أما الثمرات والخضر فى مزارعه ، فلم تكن مما يحمل إلى البلاد القصية للبيع والشراء . وإنما قصاراها أن تباع فى الحواضر الحجازية وما قاربها من البوادى القادرة على شىء من الترف والمتعة ، ولاسيما فى أيام الأسواق والحجيج . ولهذا فسر بعضهم وصف بنيه بـ«الشهود» فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدًا فى صحبته وجواره مفاخرة بهم وتنزيهًا لهم عن الكدح والتصرف فى شئون المعاش . فإن قضيت لأحدهم رحلة أو سياحة ، ففى غير هذه الأغراض أو غير حاجة ملحة إلى الاتجار ، وإنما هى الدربة والتمرس بالمصاعب والانتفاع بخبرة السياحة وآدابها ، وقد ينفقون فى ذلك خير ما يكسبون ، كما كان يصنع عمه «زاد الراكب» وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجاراة أحد لهم فى الضيافة وبذل العطايا والهبات .

وموضع الترجيح والاستنتاج هنا إنما هو فى إرسال خالد إلى البادية قصدًا لرياضة النفس والجسد على خشونة الأعراب وشدائد الميادين . . فهذا ، وإن جرت به عادة بعض الأشراف فى حواضر الحجاز ، لم يقطع به قول من الأقوال فى سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه «الشهود» على احتمال الشهادة للمعنى الذى قدمناه .

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة ، الذى لا موضع فيه لترجيح ولا استنتاج – أن خالدًا قد نشأ فى الحاضرة أو البادية مستعدًا للخشونة مستطيعًا لمعيشة الأعراب ، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد فى أوعر القفار وأعنف الحروب ، وكانت له ضلاعة العصبيين الأقوياء المعهودين بين رجال السيف ، وهى ضلاعة يوشك أن تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب أضعاف ما تستمده من العضلات والأوصال .

فلم تعفه العبقرية من ضريبتها التى لا مناص من أدائها ، وآية ذلك أنه مات على فراشه فى نحو الخامسة والخمسين ، وليست هى بالسن الغالبة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة أخرى .

وإذا تجاوزنا هذه المظنَّة ، وهى كافية ، ألفينا فى تراجم الأسرة كلها ما ينبئ عن عوارض الأسر التى تهيئها الأقدار لإنجاب العباقرة فى شتى المواهب والمزايا .

فهذه الأسرة الغريبة تكثر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس فى تركيب الأعصاب خاصة ، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللها وتمعن بهم

مخالفاتها وعناصر شذوذها حتى تسلمهم إلى الاختلال والاضطراب كأنهم ضحايا الأسرة كلها فى سبيل إنجاب العبقرية منها .

وكانت هذه العوارض مشاهدة فى أسرة خالد وفى إخوته على التخصيص . فذكر كتاب الاستيعاب فى أسماء الأصحاب : «إن الوليد بن الوليد كان يروع فى منامه ، مثل حديث مالك سواء فى قصة خالد» .

وعن مسند بن أبى شيبة أن خالد بن الوليد كان يفزع فى نومه ، فشكا إلى النبى عليه السلام ، فقال له : «إن عفريتًا من الجن يكيدك» .

وبذلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى فى شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الإخوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المغيرة .

وعمارة هذا ، هو صاحب عمرو بن العاص فى رحلة الحبشة رسولين إلى النجاشى ؛ لتسليم المسلمين بها إلى قريش .

وكان مولعًا بالخمر والغزل ، وسيمًا محببًا إلى النساء . فلما كان بالسفينة مع عَمْرٍو وامرأته شرب ونظر إلى امرأة عمرو نظرة مريبة .

وقد نلمح عوارض الأسرة هذه فى أعظم أفراد الأسرة كما نلمحها فى هذا المسكين الذى ابتلى بالثمن الفادح والضحية الكبرى . فخالد بن الوليد – شرف بنى المغيرة – لم يفتنه الميل إلى المرأة كما فتن أخاه ، ولم يصرفه قط عن عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن أبى بكر الصديق فى صدد الزواج المعجل فى غير حينه ، فسبى امرأة مالك بن نويرة ، وتزوج فى حرب اليمامة وهو بميدان القتال ، وسبى ابنة الجودى فى دومة الجندل ، وقيل إنه فقد أربعين ولدًا فى طاعون الشام وهو بقيد الحياة لما يجاوز الخمسين بكثير .

وتلك فى جملتها شواهد العوارض التى يقرر النفسانيون المحدثون أنها سمات العبقرية فى منابتها ، ومنابتها هى الأسر التى تنجبها وتبذل أثمانها قبل أن تنعم بمجدها وفخارها .

وكما ظهرت هذه العوارض فى لون من ألوانها على أخيه عمارة ، ظهرت فى بعض ألوانها الأخرى على أخيه الوليد الذى كان مثله يراع فى رقاده .

فهذا الأخ الكريم كان مع جيش المشركين فى وقعة بدر فأسره المسلمون ، وطال الكلام فى فدائه لغناه وعداوة أهله للإسلام ، فطلب آسره أربعة آلاف درهم ، وأوصى النبى ألا يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد وهى درع فضفاضة وسيف وبيضة . وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك فى أسر المسلمين . فلما تم فداؤه وذهب إلى أهله ، أعلن إسلامه بينهم وهم كارهون ، وعجب المشركون لأمره فسألوه : هلا أسلمت قبل أن تفتدى؟ فقال : كرهت أن يظن بى أننى جزعت من الإسار . . وصبر على التعذيب والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبى مشيًا على قدميه . .

هذه أيضًا نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية التى تأبى لخلائقها إلا أن تحير الناس وأن ترد عليهم من مورد التفاوت والإغراب والمخالفة للمألوف .

وهى فى أطوارها المتباينة منجم العبقرية الذى لا مراء فيه ، ومعدن البطولة التى تكتب لصاحبها وهو فى الأصلاب .

فها هنا نشأة بطل عبقرى مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولايشك فيها ، وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء والنعمة والبأساء ، ويكاد الصدق والإشاعة معًا يتوافيان إلى دلالة واحدة فى تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكلة الضب التى سبق ذكرها واحدة ؛ وغيرها أكلات مسمومات يبدو لنا أنها مخترعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شىء ، وهو اشتهار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التى يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك . ففى اليواقيت للقطب الشعرانى أنه حاصر قومًا من الكفار فى حصن لهم ، فقالوا : تزعم أن دين الإسلام حق؟ فأرنا آية ؛ لنسلم ، فقال احملوا إلىَّ السم القاتل ، فأتوه به فأخذه وقال : بسم الله ، وشربه فلم يضره . وتردد مثل ذلك فى كتاب الإصابة فروى عن مصادر شتى أنه لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه فى راحته ، ثم سمى وشربه ، ولم يؤثر فيه .

وقد سمعنا نيتشه - بشير السوبر مان فى العصر الحديث - يقول إن السم الذى لا يميتنى يزيدنى قوة . .

فهذه بنية بطل نشأته للمجد على هذا الغرار .

٤ إسلامه

كان إسلام خالد ضربًا من التسليم . .

كان ضربًا من التسليم بمعناه «العسكرى» المصطلح عليه فى عُرف القادة ورجال الكفاح . .

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر والنصر والهزيمة ، الخبير بموضع الإقدام وموضع الإحجام ، المقاتل والقتال شجاعة ، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها .

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل ، ولا الجازع المنخذل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادى اليقين بالخبرة ، يوم أسلم وسلم إلى معسكر الدين الجديد . كأنه آمن بالله ؛ لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه إلا الله ، وكأنه كان يقول فى قرارة ضميره : أيهزمنى أحد وليس له مدد من النبوة؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من السماء؟

فبلغ نهاية الإيمان بنفسه يوم بلغ بداية الإيمان بالله .

وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم أن يحاربوا حربهم إلى نهايتها ؛ لأن الصراع بين الجاهلية والإسلام لم يكن إلا صراعًا لهم قبل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على التعميم .

وكان معسكرهم أوْلى المعسكرات أن يصمد إلى موقف الحسم من النضال بين الفريقين ؛ لأن بلاءه بإدبار الجاهلية أكبر من كل بلاء ، وموقفه أمام الإسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده ، وعزة «النظام» الاجتماعى كله كما قررته الجاهلية أحقابًا بعد أحقاب ؛ لأنه النظام الذى به يقومون وبهم يقوم .

وقد أبلى أبوه فى هذا الصراع قصارى ما فى وسعه من بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تضيق به الفصول ، ولكن إشارة واحدة فيه تغنى عن بيان طويل ، وصفحة موجزة من صفحاته تغنى عن الإطناب فى القال والقيل .

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها فى حرب الإسلام أن نقول إنه قد هان عليه فى هذا السبيل أن يبذل العزيزين ؛ الولد والمال .

ففى بداية الدعوة المحمدية ، سعى وقومه إلى عم النبى أبى طالب ؛ ليسلمهم محمدًا أو يتخلى عنه ، وله بديلاً منه عمارة بن الوليد . . . وقد وصفوه بأنه أنهد الفتيان وأشعرهم وأجملهم فى قريش .

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى إلى النّبى فيمن سعى إليه من سراة قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة الأحزاب : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ .

وبمقياس هذا البذل السخى فى سبيل الدين تقاس كراهة الرجل للدين الجديد ، وهى كراهة الهرم التى تبقى إلى الموت ؛ لأنه فوجئ بالإسلام وهو يقارب الثمانين وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين .

* * *

وكان خالد فتى ناشئًا يوم ظهر النبى بالدعوة الجديدة ، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون ، وزاد على النفرة لهبًا من حمية صباه ، وتحفزًا فتيًا يسبق به أباه .

فما هو إلا أن بلغ مبلغ الزعامة فى القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة ، ولم تنقض سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة فى وقعة أحد المشهورة ، وتولى الهجمة التى مالت بكفة النصر من جانب المسلمين إلى جانب المشركين .

وذلك أن النبى عليه السلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم : «قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا» . فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين ، خالفت كثرة الرماة وصاية النبى وتصايحوا بينهم : «ما مقامنا هاهنا وقد انهزم المشركون» ، فكانت هى الغرة التى اهتبلها خالد ، ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين ، فحملوا على من بقى من الرماة ، فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمين ، واستدارت رحاهم ، واختلطوا ، فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضًا من العجلة والدهش ، وشاع أن النبى

عليه السلام قتل فى المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار ، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان أن أبا بكر وعمر من القتلى ، وصاح بين الصفوف : «يوم بيوم بدر والحرب سجال» .

* * *

واشترك خالد فى وقعة أخرى هى وقعة الأحزاب ، أو الخندق ، فكانت هى أيضًا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها ، لولا يقظة على بن أبى طالب ووقيعة بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التى عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسًا من اقتحام الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة ، وفى هذه الغزوة يقول القرآن الكريم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ... ﴾ .

وقد كان خالد فى هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقًا يقحم منه الخيل فأعياه ، وفشل عمرو بن ود حين حاول العبور من إحدى نواحيه . فلما حبطت حملة عمرو وقتله على بن أبى طالب . بات المشركون ليلتهم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصباح ، فكان خالد هو الموكل بالنبى عليه السلام فى كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب ، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويًا من الليل ، إلى أن تحاجز الفريقان ورجع المشركون وانصرف المسلمون إلى قبة النبى ، فارتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة ، وكاد أن يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه . ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة ، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقة الجيش فى مائتى فارس ردءاً للجيش كله ، مخافة أن يتعقبه المسلمون .

* * *

وتصدى خالد مرة أخرى للنبى عليه السلام فى سنة الحديبية وهو فى طريقه إلى مكة ، وكان النبى قد خرج إليها معتمرًا فى نحو ألف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحًا غير السيوف فى القرب ، فأوجس المشركون خيفة أن يكون قدومه إلى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وندبوا خالدًا فى مائتى فارس للقائه قبل بلوغ مكة . فدنا خالد حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم فى خيله وأقام بإزائه وصف من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهمّ خالد أن يُغِير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه ، فعلت هنا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور ، وقال خالد يصف ذلك بعد إسلامه : «هممنا أن نُغِير عليه ثم لم يعزم لنا ، وكان فيه خيرة ، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعًا ، وقلت الرجل ممنوع» .

إلا أنه مع هذا بقى على لدده فى خصومة الإسلام ومعاندة نفسه دون الإصغاء له والنظر إليه . فلما صالح النبى قريشًا ودخل مكة فى عمرة القضية كره خالد أن يشهد دخوله ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معنى النظر من رؤية شىء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حربه .

كذلك كانت كراهة خالد للإسلام بعد كراهة أبيه .

ومن وثباته هذه ، ولجاجه ذاك ، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التى هى أقرب إلى المبارزة والمناجزة منها إلى المقت والضغينة ؛ لأنها لا تعنى صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف عليه ، كأنه زميل المبارزة اللازم لإتمام الصراع وإذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه .

وهذه الحرارة حركة جياشة فى النفس وليست كذلك الموات الذى تنقبض عليه النفس فى الشيخوخة الفانية ، ولا كذلك الضغن الذى يتغذى بقيحه المخزون فى طبيعة منغولة معدومة الخير والنجدة .

مثل هذه الحركة الجياشة فى النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع الآتى فى واديه المحيط بجانبيه ، يظل متدفعًا آتيًا ما بقى فى الوادى وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه ، ولكنه إلى أمد لا محالة ؛ لأنه سينتهى إلى مفترق الوادى فلا يجيش ولا

يتدفع ، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع ، وسيكون طريقه مع الوادى المفترق غير طريقه مع الوادى المحصور .

والوادى هنا قد افترق فى مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد قريب وإن لم ينته بعد إلى غاية المفترق فى الأرض البراح .

افترق الوادى قليلاً حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الإسلام ، وأصبح فى معسكر الإسلام أخوان حبيبان إلى خالد ، وهما الوليد وهشام .

وافترق قليلاً يوم أصغى أبوه إلى القرآن ، فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذى أرابهم وأشجاهم ، فحسبوه قد صبأ عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع فى قلبه أنه وحى السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذى يفرق بين الرجل وزوجه والولد وبنيه والسيد ومولاه .

وافترق قليلاً يوم شهد خالد سكينة المسلمين فى طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة ، وهجس فى خاطره أن يُغِير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن الغدر والغيلة ، وسرى فى روعه أن لمحمد لسرًا وأن الرجل لممنوع .

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع وإقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء ، فإذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية ، وإذا بصلح الحديبية يلقى السلاح من الأيدى سنين طوالاً لا لقاء فيها ولا نزال ، ولا سورة من غضب ولا جذوة من غيظ مثار .

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول ، وتهيأ الجو للسؤال : فيم هذا العداء والنضال؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج إليها؟ أم من أجل العصبية القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين؟ أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره؟

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين؟

ومن له تلك المهابة التى ترد عنه الأعين والأيدى من قريب؟

ومن أين له ذلك العون الذى يدركه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج ، فإذا هو ناصل منها وإذا هو الطارد الظافر وقد خيل إليهم أنه الطريد المخذول؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع؟ ومن أين للنبى بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع؟

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود ، فعاد إلى قومه يقول : «والله يا معشر قريش . . . جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى عظمته فما رأيت ملكًا فى قومه مثل محمد بين أصحابه ، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه بشىء أبدًا ، فانظروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدًا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه» .

ولقد رأوه بعد ذلك فى عمرة القضية لا يتوضأ إلا كاد المسلمون يقتتلون عليه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر إليه ، ورأوهم فى نظامهم ومودتهم وصدق إيمانهم وخالص نياتهم ، فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا فى الزراية بهم والإعراض عنهم ، وانقلبوا إلى أنفسهم فإذا هم مرتابون فى الغد متدابرون فى المقصد ، منهزمون وهم الأكثرون ، محجمون وهم المتربصون ، فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير ، وفرضت هذه المراجعة فرضًا على كل ذى بصر بالقيادة فى معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال ، فإذا بالرجلين المفطورين على توجيه الوجوه قد انتهيا إلى رأى فى مصير المعركة بين الجاهلية والإسلام فى ساعة واحدة ، وعلمًا أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض الهزيمة ، وهما عبقريا قريش فى أصول القيادة على تباين السن والمذهب والمزاج : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

وفى تلك الآونة التى يشتد فيها الجذب والدفع بين الإنسان وقرارة ضميره ، وتجب فيها الموازنة وجوبًا على كل ضليع بها قادر عليها ، لم يترك خالد لنفسه ولم يلبث أن جاءته الدعوة التى تنصره على عناده وتخرجه من تردده ، وتستدعى منه البت العاجل بجوابه ، وتمسح الغضاضة التى لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره .

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى فيها عن جواب .

قال أخوه الوليد : « . . . أما بعد . . . فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام يجهله أحد؟ . . .» .

ثم مضى يقول : «سألنى رسول الله ﷺ فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتى الله

به . فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له ، ولقدمناه على غيره . فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة» .

* * *

تلك كانت هى الدعوة التى جاءت فى أوانها .

وكان إسلام خالد هو الجواب .

* * *

فهى مراحله الطبيعية التى لابد له من عبورها بين الجاهلية والإسلام ؛ لم يكن طبيعيًا أن يلبى أول دعوة وهو هو فى قريش صاحب معقلها المنيع .

ولم يكن طبيعيًا أن يلبى الدعوة فى وطيس الحرب ومحتدم العداء .

ولم يكن طبيعيًا أن يسكن هنيهة إلى الموازنة وقد انقسم بيته ، ثم انقسمت نفسه ، ثم جاءته الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكون الإسلام جوابه المنظور .

فهو قد انتقل من الإصرار إلى القتال ، إلى الموادعة ، إلى الموازنة ، إلى الترجيح ، إلى الإجابة ، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هى مكان العجب وهى الأمر المخالف لطبائع الأمور .

وقد أسلفنا أن الإسلام كان فى أمر خالد ضربًا من التسليم ، فنعيد هنا أنه تسليم القائد فى معركة نفسية وليس بتسليم القائد فى معركة حسية وكفى ، ولهذا عناه أن يستغفر له النبى ربه عن ماضيه ، ولم يكن قصاراه أن يرحب به النبى ويسلكه بين صحابته ومريديه ، فقال : يا رسول الله . . قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا عن الحق ، فادع الله يغفرها لى .

فأجابه النبى عليه السلام : أن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله .

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله ، وعلى ذلك!

فدعا النبى ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك .

فرضى خالد واستراح . .

ولا يكون هذا إلا تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح .

وأحرى بنا أن نرجع إلى كلام خالد ؛ لبيان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التى كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبى فى المدينة ليسلم على يديه ، فإنه أجمل ذلك كله إجمالاً يفصح عن تلك الأطوار النفسية التى ساورته وإن لم يقصد إلى الإفصاح عنها ، ولعل صدورها منه على البديهة أبين لها وأقرب إلى توكيدها من الشرح المقصود .

قال : «لما أراد الله بى من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمدًا سيظهر ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل المشركين فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر إماما ، فهممنا أن نُغِير عليه ثم لم يعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعًا وقلت : الرجل ممنوع ، وافترقنا وعدل على سنن خيلنا ، فأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشًا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت فى نفسى : أى شىء بقى؟ أين المذهب؟ أإلى النجاشى؟ فقد اتبع محمدًا وأصحابه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية؟ أفأقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى؟

«وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فى عمرة القضية ، وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى تلك العمرة ، فطلبنى فلم يجدنى . فكتب إلىَّ كتابًا فإذا فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ فقال : أين خالد؟ فقلت يأتى الله به ، فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة» .

«فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة فى الإسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله ﷺ ، ورأيت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدبة ، فخرجت إلى

بلد أخضر واسع ، فقلت : إن هذه الرؤيا حق! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبى بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذى هداك للإسلام ، والضيق الذى كنت فيه الشرك . فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت : أما ترى يا أبا وهب؟ أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه؟ فإن شرف محمد شرف لنا . فأبى على أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما تبعته أبدًا ، فافترقنا ، وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترًا ، قُتل أبوه وأخوه ببدر . ولقيت عكرمة بن أبى جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان . . فقلت له : فاطو ما ذكرت لك . . وخرجت إلى منزلى ، فأمرت براحلتى تخرج إلىّ إلى أن ألقى عثمان بن أبى طلحة ، وهو صديق لى أذكر له ما أريد . ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما علىّ وأنا راحل من ساعتى؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه ، وقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوًا مما قلته لصاحبيه ، فأسرع الإجابة . . وأدلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج – على ثمانية أميال من مكة – فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مرحبًا بالقوم . قلنا : وبك . فقال : أين سيركم؟ قلنا : ما أخرجك؟ قال : فما الذى أخرجكم؟ قلنا: الدخول فى الإسلام واتباع محمد . قال : وذاك الذى أقدمنى . فاصطحبنا جميعًا حتى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله ﷺ فسُرَّ بنا . فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ أخبر بقدومك فسر بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى ، فطلعت فما زال يبتسم إلىّ حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علىّ السلام بوجه طلق فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : الحمد لله الذى هداك ، وقد كنت أرى لك عقلاً ورجوت ألاَّ يسلمك إلا لخير» .

إلى أن قال : «وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا فى شهر صفر من سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحدًا من أصحابه فيما حزبه» .

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة الأولى التى حركت قلب خالد إلى الإيمان بالدين الجديد، ونحسب أنها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين فى طريقهم إلى مكة قبيل صلح الحديبية . . يوم ردته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون إلى جوار البيت الحرام، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئًا بدعوة محمد وغلبة أصحابه على البلد الأمين، ويوم تراءى العنت من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده، ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير، كما قال الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش . .

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك وتقارب ما بينه وبين الإسلام، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته النبى على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور .

وفى تحقيق هذا التاريخ - تاريخ إسلامه - خلاف غير قليل، ولكن التاريخ الذى جاء فى سرده المنسوب إليه أرجح التواريخ جميعًا لأسباب كثيرة، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب النفسانى الذى يقترن بغيره . فإن الوقت المشار إليه آنفًا لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والإسلام، ولن نجد وقتًا هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذى تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وبعده قضى الأمر ولم يبق لمكة إلا أن تفتح أبوابها طائعة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمانى .

وقد علم النبى عليه السلام جلية الأمر منذ قدم إليه الرفاق الثلاثة، فقال لصحبه : رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها، وحق للمسلمين أن يحسبوا منذ تلك الساعة أن أولئك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين .

فالواقع أن مكة قد أذنت بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن أبى طلحة، فأصبحت «المدينة المفتوحة» التى نعرفها فى اصطلاح هذه الأيام، وأصبحت قضية مغلقيها فى وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط .

ويخطئ الكاتبون الذين يزعمون أنها فتحت بعد شهور لأنها أخذت على غرة وزحف عليها جيش المسلمين فى عشرة آلاف وأهلها معجلون عن الأهبة والدفاع .

فإن النبى عليه السلام إنما زحف عليها ؛ لأن قريشًا غدرت بعهدها وسطت على حلفائه من خزاعة ، ثم أشفقت من القصاص فأوفدت أبا سفيان إلى النبى يستأمنه ويسأله مد العهد الذى أبرم بينهم فى صلح الحديبية ، فأبى النبى ولم يجبه ، وأحس المشركون منذ اللحظة الأولى أن المسلمين زاحفون عليهم لا محالة ، فلو أن قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدلوا قبل السطو بخزاعة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة فى التأجيل والمراوغة ، ولكنه التسليم الذى بدأ بإسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت إلى أجله المعلوم .

* * *

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين ، وتقدم النبى صلوات الله عليه فى كتيبته الخضراء ، وتقدم سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد إلى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذى وكل إليه ، ونهى النبى أصحابه عن القتال فيها ، فلم يحدث قط قتال إلا من صوب خالد بن الوليد ؛ لأن صفوان بن أمية وسهيل بن عمر وعكرمة بن أبى جهل رصدوا للباب الذى وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش وأقلهم من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء .

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معًا يرمون المسلمين عن قوس واحدة .

إنه حارب فى صفوف الإسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب فى صفوف الإسلام جيوش الفرس والروم ، وحارب فى صفوف الإسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها؟ وأين يلتقى بها إن فاته لقاؤها فى ذلك اليوم؟ لقد لقيها إذن فى ساعتها التى لا ساعة بعدها وقال النبى حين سمع بضربته : ألم أنه عن القتال؟ قالوا : إنه خالد قوتل فقاتل فقال : «قضاء الله خير» ، ثم قال : «لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة . . .» .

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون .

٥ مع النبى صلى الله عليه وسلم

أحاط بالنبى عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون فى الأعمار والأقدار ، مختلفون فى البيئات والأحساب ، مختلفون فى الأمزجة والأخلاق ، مختلفون فى ملكات العقول وضروب الكفايات ، مختلفون فى فهم الدين وبواعث الإسلام ، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب فى نفس ذلك الإنسان العظيم ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدًا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم فى وجهته التى هو أصلح لها وأقدر عليها ، وهم يلتقون أول الأمر وآخره فى ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التى فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال ، بل لقادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال .

وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبى إياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس وسبره العميق لأغوار الطبائع والأفكار ، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات فى هذا الباب ؛ لأنه عليه السلام لم يكبره إكبار السياسى الذى يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والجاه والعتاد ، وإنما أكبره ؛ لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير ، وسماه «سيف الله» وبينه وبين الوقائع التى استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات ، بل سماه سيف الله وهو قافل من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير ، ويحثون فى وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم : يا فرار . يا فرار . فررتم من سبيل الله .

لم يكبر النبى خالدًا كما أكبر أبا سفيان تألفًا له ورعيًا لمكانه فى قومه ولكنه أكبره للصفة التى سيوصف بها فى تاريخ الإسلام بعد اهتدائه إليه ببضع سنوات .

أكبره ؛ لأنه «سيف من سيوف الله» والناس لا يرون إلا الهزيمة والارتداد ، ولم يكن النبى موليه القيادة فى المعركة التى ارتد منها بجيش المسلمين ، فيقول قائل إنه ينصر المسئول عن اختياره ، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره . ولكنه ولى

آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة إخوانه فى الجيش ، فاختاروه بعد ذلك مجمعين .

كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه فى ظلام المحنة والبلاء .

وقد صحب خالد النبى ثلاث سنوات ، وعهد إليه النبى فى كثير من الأعمال الصغيرة وأشركه فى بعض الأعمال الكبيرة ؛ ومنها غزوة مؤتة ، وغزوة حنين ، وسرية بنى جذيمة ، فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانئ والحاسد ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين تارة إلى جانب العذر وتارة إلى جانب الملام ، ولو أنه رضى الله عنه قضى نحبه فى السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمى «سيف الله» وفيم استحق هذا اللقب الذى لا يعلوه لقب فى الإسلام ، ولكن النبى وحده قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه ، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام ، وهى الأعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام .

وإنما هو البصر العلوى الذى يلمح هذه القدرة فى معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالدًا مرتدًا من غزوة مؤتة أو مأخوذًا مع الخيل وهى تولى فى أول المعركة من ميدان حنين ، أو صانعًا فى سرية بنى جذيمة ما يبرأ منه النبى عليه السلام .

ولهذا ينبغى أن توزن هذه الأعمال بميزانها الصحيح ؛ لإقامة خالد نفسه فى مقامه الصحيح ، فهى ولا ريب من المعدن الذى نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام .

سرية مؤتة

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعًا بعد إسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مؤتة التى سيرت إلى البلقاء .

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى عليه السلام أرسل وفدًا إلى ذات الطلح بمقربة من الشام ؛ ليدعوهم إلى الإسلام ، فقتلوا جميعًا وعدتهم خمسة عشر إلا رئيسهم نجا من القتل وحده ، ولعلهم أبقوا عليه عمدًا ؛ ليخبر بما رآه ، على ديدن المنكلين فى إبلاغ مثلاتهم إلى من يهددونه بالتمثيل والتنكيل .

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى رسولاً إلى هرقل ، فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى وهو فى الطريق .

فأشفق عليه السلام من عقبى السكوت على كلتا الفعلتين وهو غير مأمون . . وعلم أن قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة ومنها المتربص للغدر متى قدر عليه ، والموهون الإيمان الذى لا يصبر على الإغراء والاستثارة ، فإذا استضعف الغسانيون وجيران الغسانيين شأن النبى وأفلتوا من جرائر فعلة كتلك الفعلة اللئيمة جرأهم ذلك عاجلاً على اقتحام الصحراء للنقمة من المسلمين ، فتهب القبائل لنصرتهم فى طريقهم وتمدهم الدولة الرومانية بالمال والسلاح تقريرًا لهيبتها فى عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسها ووهموا أنهم قادرون عليها ! إذ لا مطمع للدولة الرومانية فى مقاتلة المسلمين وإخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة ، ولا سبيل إلى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعاهداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين فى عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود ، وتسييرهم بحرًا إلى شواطئ الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة بأناس من العرب وأهل البادية ، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب باتباعهم الأقدمين فى تخوم الشام .

فلم يجد عليه السلام مناصًا من الثأر لأصحابه المقتولين ، وجرد لتأديب المعتدين جيشًا صغيرًا لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف ، وكان فى ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عهدًا بالإسلام ، فلم يتول خالد قيادته ؛ لأنه كان

على الأرجح أحدثهم عهدًا بالدخول فيه ، وتولاها زيد بن حارثة «فإن أصيب فالرئيس جعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم» .

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا إلى حيث قتل الرسول فيدعوا القوم إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا فالقتال ، وأوصاهم : «ألا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا كبيرًا ولافانيًا ولا معتزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناءً» .

ولا شك أن هذا الجيش إنما كان بالوصف العصرى «حملة تأديبية وبعثة استطلاع» يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل هذه الغاية ، ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولة الرومانية أو يفتح البلاد التى كانت يومئذ فى يديها . .

فمضى لهذه الوجهة حتى نزل معانًا وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن هرقل قد عسكر بمآب فى مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء .

وقد يقع فى الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها إلى تخوم الدولة فى مدى الأيام التى مضت من خروج جيش المسلمين إلى بلوغهم أرض معان ، وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها فى مثل هذه السرعة ، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس إلى القوة الإسلامية التى مهدوا للقائها ، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها . .

والأرجح أن هرقل إنما كان فى جموعه هنالك فى زيارة الشكر التى نذر لله أن يؤديها إذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذى حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس ، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس فى ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة فى تلك الزيارة التاريخية .

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقربة منهم ، وأن الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيد عمل غير مجد ، ولم يكن منظورًا ولا مقصودًا عند مسير الجيش من المدينة ، فرجع بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ؛ ليستأذنوا النبى فيما

يصنعون ، وغلبت حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم : «يا قوم! والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون ؛ الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة!» .

فاستمعوا إليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الانتهاء إلى مقصدهم الذى خرجوا من أجله ، وهو إبلاغ الدعوة إلى قاتلى الرسول النبوى وإبراء الذمة إليهم قبل القصاص ، إن وجب قصاص .

فتقدموا من معان إلى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم فى خدمة الرومان .

واحتمى الأمير الغسانى منهم بحصنه ثلاثة أيام ، لعله كان ينتظر فيها مددًا أو أمرًا من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على مزرعة فى جوار البلدة ، فاستمات من بقى من جيش المسلمين ، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون ؛ لأننا لم نسمع فى أخبار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الإجابة عليها ؛ ولأن قائدًا منهم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات ، فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطة غير خطة الصمود للخطر والثبات فى وجهه مخافة المصاب الأكبر فى هذه الحالة وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة .

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة ، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل ، وأحاط القوم بجعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين ، فأنحوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت يمينه ، ثم قطعت شماله ، ثم ضم اللواء إلى عضديه ولبث يناضل عنه إلى أن مات .

ودعى ابن رواحة إلى الرئاسة ، فجاءه ابن عم له بعرق من لحم وقال له : شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة فى ناحية المعترك فألقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد :

يا نفس إلا تقتلى تموتى	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلى فعلهما هديت

فطفق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتل والمعركة فى أشدها .

فما هى إلا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحى البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التى تهدى إلى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها . وإذا باللواء يأخذه فى تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بنى العجلان وينادى فى أصحابه : «يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم» . قالوا : «أنت» ، قال : «لا . ما أنا بفاعل» ، فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فإذا هو يتولى القيادة فى حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع فى ذلك الحين .

وخير ما يصنع فى ذلك الحين هو الارتداد المأمون . .

وهو أصعب من النصر فى بعض المآزق ؛ لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه ، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف الموقفين . . إلا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافئ الرجحان فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه .

وأول شيء ينبغى أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع فى روع عدوه أنه لا ينوى الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصد إلى الحيلة .

فصمد فى الميدان حتى المساء .

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة إلى الميسرة ، ونقل الميسرة إلى الميمنة ، وجعل الساقة فى موضع المقدمة ، والمقدمة فى موضع الساقة ، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح . فلما طلع الصباح على الفريقين ، إذا بكل طائفة من طوائف الغسانيين والروم ترى قبالتها وجوهًا غير الوجوه وأعلامًا غير الأعلام ، وإذا بالجلبة مع هذا الاختلاف فى الوجوه والأعلام توهم القوم أن مددًا جديدًا أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمرّ المذاق بغير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشى بجيشه لم يتبعوه حذرًا من الكمين وتوقعًا للإحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد فى هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط فى غزواته الكبرى على كثرتها . فاندقت فى يده تسعة سيوف ولم تصبر معه إلا صفيحة يمانية ، وكان هذا التراجع المحمى بشجاعة المستميت غطاءً صالحًا للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير . فقفل إلى المدينة بسلام ، وعرف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبى وهو سيف الله ، وعاد الناس يقولون مع النبى إنهم الكرار بإذن الله وليسوا بالفرار . .

وقد سمعنا فى عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة لأنهم نجحوا فى خطة ارتداد لا محيص منها . فتلك هى السنة النبوية تسبق النظم العصرية إلى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح فى ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح فى تقدمه وانتصاره . ولو أن خالدًا ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سوء وتعرضت الدعوة الإسلامية لمحنة لا نعرف مداها الآن . ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسانيين ؛ لأن الجيش قد خرج من المدينة تأديبًا لأناس متصلفين قتلوا رسولاً واحدًا أو قتلوا وفدًا لا تجاوز عدته خمسة عشر . فإذا تورط هذا الجيش فى الزحف حتى اصطلم [1] كله ولم يعد منه أحد ، فكيف يكون وقْع هذا التأديب المعكوس فى نفوس البادية المتحفزة أو فى نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين؟ إنه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة ، وإنه ليثير من الفتن ومساوئ الظنون ما يصعب استدراكه فى سنين .

ولكن الجيش قد عاد وأبلى فى أعدائه ، وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التى حسبتها مرصدة له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثنى عشر قتيلاً منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسرية إذن قد نهضت بأمانتها ، ووقع فى نفوس المسلمين من فرط الثقة ببأسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها ، وهى مغالاة فى القوة والبأس خير من المغالاة فى الضعف والخور ، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التى تضع الأمور فى نصابها ، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس فى ثياب الإخفاق .

بنو جذيمة

وقد أثنى النبى على خالد فى مهمة لم يندبه لها ، ولم يرشحه لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأى المسلمين فيها .

ولكنه لامه وبرئ من عمله حين أخطأ فى مهمة ندبه لها بعد فتح مكة ، وهى السرية التى قادها إلى بنى جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم إلى الإسلام .

فبعد فتح مكة ، توجهت عنايته عليه السلام إلى تطهير البوادى المحيطة بها من عبادة الأصنام فأرسل السرايا إلى قبائلها ؛ لدعوتها والاستيثاق من نياتها ، ومنها

(١) اصطلم : أى قتل وأبيد .

سرية خالد إلى بنى جذيمة فى نحو ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبنى سليم . . أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال .

وكان بنو جذيمة «شرّ حىّ فى الجاهلية يسمون لعقة الدم ، ومن قتلاهم الفاكه ابن المغيرة وأخوه عما خالد بن الوليد ، ووالد عبد الرحمن بن عوف ، ومالك بن الشريد وإخوته الثلاثة من بنى سليم فى موطن واحد» وغير هؤلاء من قبائل شتَّى .

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بنى سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول ، فسألهم : أمسلمون أنتم؟ فقيل إن بعضهم أجابه : نعم ! وبعضهم أجابه : صبأنا ! صبأنا ! أى تركنا عبادة الأصنام ، ثم سألهم : فما بال السلاح عليكم؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم فأخذنا السلاح ، فناداهم : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا ، فصاح بهما رجل منهم يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبدًا . فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون . فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف ، فأطاعه فى قتلهم بنو سليم ومن معه من الأعراب ، وأنكر عليه الأنصار والمهاجرون أن يقتل أحدًا غير مأمور من النبى ﷺ بالقتال ، ثم انتهى الخبر إلى النبى فرفع يديه إلى السماء وقال ثلاثًا : «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» ، وبعث بعلى بن أبى طالب إلى بنى جذيمة فودى دماءهم وما أصيب من أموالهم . . قيل إنه «كان يدى حتى ميلغة الكلب» ويسألهم : أبقى دم أو مال لم يود لكم؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال «احتياطًا لرسول الله» وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت إليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه : هل أنكر عليه أحد؟! قال : نعم . قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر ، فاشتدت مراجعتهما . وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله ، فقال : أما الأول يا رسول الله فابنى عبدالله ، وأما الآخر فسالم . . مولى بنى حذيفة . .

ويعزى إلى خالد أنه استند فى قتالهم إلى قول عبد الله بن حذافة : «إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام» .

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة ، من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها ، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدًا بقتل القوم عمدًا

ليدرك ثأر عميه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجل من بنى أمية . . وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارًا إلى اليمن ، ثم عادوا ومعهم مال رجل من بنى جذيمة قضى نحبه هناك يحملونه إلى ورثته وأهله . فاعترضهم جذمى فى رهط من قبيلته يُدْعى خالد بن هشام وزعم أنه وارث المال وأحق به من غيره ، فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال إلى أهل الميت . فغضب وقاتلهم بالرهط الذين معه فقتل عوفًا والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبد الرحمن إلى خالد بن هشام هذا فقتله بثأر أبيه . وهمَّت قريش بغزو بنى جذيمة لولا أن مشى بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال .

ومن الإسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمَّد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبى ذريعة إلى شفاء ترة قديمة ، فأدنى من ذلك إلى القصد فى فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع خالدًا خاصة إلى مثل هذا التصرف ، فإن كانت هذه الدواعى وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهى تفسير لما حدث وفيها الكفاية ، وإن لم تكن قائمة ولا مفهومة فهناك ينفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء .

وقد كانت دواعى اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة فى مقتلة بنى جذيمة . فإن البوادى كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقيعة فى تلك الآونة بعد تسليم مكة ، فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة فى العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبى وجمعه ، فإذا ارتاب خالد فى نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله فى ارتيابه وجه لا يخفى ، وإذا أضيف إلى ذلك تلجلج القوم فى إعلان إسلامهم والإفضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس فى أشباه ذلك المقام .

وقد يغنى الشعر والقصص فى الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ وتسلسل الرواية ، فمن كلام أحد الوهبيين فى خطاب بنى جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الإسلام والمسالمة ، وذلك إذ يقول :

دعونا إلى الإسلام والحق عامرا ... فما ذنبنا فى عامر إذ تولت
وما ذنبنا فى عامر لا أبا لهم ... لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الجذميين :

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب

وفى قصة رواها محمد بن إسحاق بن يسار ـ وهو من الثقات ـ شواهد على إصرار بنى جذيمة وعنادهم إلى ما بعد الإسار والإنذار ، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغانى حيث نقلت ببعض التصرف : «أن خالد بن الوليد كان جالسًا عند النبى ﷺ فسئل عن غزوته بنى جذيمة ، فقال : إن أذن رسول الله ﷺ تحدثت ، فقال : تحدث ، فقال : لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح . فقاتلناهم ، حتى كاد وجه الشمس يغيب ، فمنحنا الله أكتافهم فتبعناهم نطلبهم ، وإذا بغلام له ذوائب على فرس ذنوب فى أخريات القوم ، فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه ، فقال : لا إله . فقبضت عنه الرمح ، فقال : إلا اللات أحسنت أو أساءت . فهمسته همسة أذريته وقيذا - أى مشرفًا على الموت - ثم أخذته أسيرًا فشددته وثاقًا ، ثم كلمته فلم يكلمنى واستخبرته فلم يخبرنى ، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة يسوق بهن المسلمون . فقال : أيا خالد! قلت : ما تشاء؟ قال : هل أنت واقفى على هؤلاء النسوة ، فأتيت على أصحابى ففعلت وفيهن جارية تدعى حبيشة ، فقال لها ناولينى يدك ، فناولته يدها فى ثوبها . فقال : أسلمى حبيش قبل نفاد العيش ، فقالت : وأنت حييت عشرًا أو تسعًا وترًا وثمانيًا تترى» .

قال : «وتناشدا الأشعار حتى قتل ، وأقبلت الجارية ووضعت رأسه فى حجرها وجعلت ترشفه وتبكى . . .» إلى آخر القصة فى الجزء السابع من الأغانى وهى على ظهور الاختراع فى بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بنى جذيمة من سرية خالد .

فإذا صح مع هذا أن خالدًا تلقى من عبد الله بن حذافة السهمى أمرًا بقتال بنى جذيمة نقلاً عن النبى ﷺ فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة إسلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه ، وهى على أية حال رواية لا تغفل كل الإغفال فى صدد البحث عن أخبار هذه السرية . .

والجو كله بعد هذا وذاك - سواء فى البادية أو فى مكة - هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور ، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع والآراء وأن تستطار فيه دواعى الشر والنقمة ، وأن يتطرق إليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح .

وعند خالد دوافع الطبع إلى جانب دواعى اللبس واختلاط الآراء وهى الدوافع التى قد نعد منها حداثة السن فى ذلك الحين ، ومنها أنه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال فى الصحراء ، ويحدث للقائد فى هذا الموقف كثيرًا أن يفرق بين ضربين من التسليم هما : تسليم المراوغة والختل ، وتسليم الإذعان والنصيحة ، ولاسيما تسليم العدو المتهم المتردد الذى يحيد عن الصراحة يفند أناس منه مقال أناس آخرين .

ومن دوافع الطبع عند خالد ، تلك الصرامة التى ينشأ عليها كل من نشأ فى مثل بيئته من الجاهلية ، وتلك الشدة التى تثيره إليها أعصابه ويومئ إليها تفزعه فى نومه ومشاركة إخوته فى عوارضها الموروثة على نحو من الأنحاء ، وهى ولا ريب تلك الشدة التى عناها عمر بن الخطاب حين قال : «إن سيف خالد لرهقًا» وهو من أعرف الناس به وأقربهم إليه ، وهى التى توقعها جحدم أخو بنى جذيمة حين صاح بقومه محذرًا إياهم من إلقاء السلاح : ويلكم يا بنى جذيمة . إنه خالد ! كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج إلى تأويل بعيد .

وندرت فى تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغى أن يقع بشير السلام .

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبنى جذيمة فجنح به شعوره إلى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة إليهم من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام .

فكل هذا أقرب إلى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبى على دخل وسوء نية وهو الرجل الذى حارب أصدقاءه وأقرب الناس إليه على أبواب مكة ، وله ندحة عن حربهم لو تعمد اجتنابها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع إلى صدق النية فى إطاعة النبى عليه السلام . .

ومهما يلم اللائمون أو يعذر العاذرون فى هذه الزلة ، فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأن الإبقاء على خالد بعدها صواب . لأن صواب ؛ الإبقاء على خدمته بعد غزوة بنى جذيمة قد ظهر أيما ظهور فى حروب الردة وحروب الفرس والروم .

وذلك مثل من تربية النبى عليه السلام لأفذاذ الرجال .

ويتجلى تمام هذا المثل بإعطاء الرجال فرص المراجعة والإصلاح فى أمر يشبه الأمر الذى أخطأوا فيه ، وموقف قريب من الموقف الذى عرضهم للملامة وهذا الذى توخاه عليه السلام حين أرسل خالدًا دون غيره إلى بنى المصطلق - وهم من بنى جذيمة - ليستخبر له خبرهم ويتبين الحق فيما بلغه عن ارتدادهم ، وكان الوليد ابن عقبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فندب عليه السلام خالدًا «وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره» .

وهو مثل ينبئ عن كثير ، وقد ينبئ فيما ينبئ عنه أن خالدًا لم يتعسف كل التعسف فى شكه الأول ببنى جذيمة على اختلاف بيوتهم ؛ لأن الشك فيهم مازال يتكرر بعد ذلك بشهور ، ومازال يدعو إلى تلقى الإشاعة عنهم وإيفاد الوفود إليهم مرتين للتمحيص والاستخبار .

غـــزوة حـــنـين

ولم تمض أيام معدودات على مقتلة بنى جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبى فى حادث من أكبر حوادث الإسلام وهو غزوة حنين .

لمس هذه الثقة فى غزوة حنين مرتين ؛ مرة فى إسناد قيادة الخيل إليه على طليعة الجيش ، ومرة فى سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين .

وحق خالد فى تلك الثقة إنما يستبين من عرض الغزوة كلها لجلاء الأسباب التى أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين ، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد . . بل لعلها توحى إلينا أن هزيمة خيله يومئذ إنما كانت كصد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية ، أمام جارفة من الجوارف القوية ، تأخذ ما أمامها من إنسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان .

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثائرون محنقون ، وعلموا يومئذ أنها الوقعة الفاصلة وأنه لا مطمع بعدها فى مكافحة النبى إذا تطاولت الأيام على قيام دينه فى البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام ، فاجتمعت قبائل همدان من هوازن

وثقيف وجشم ومشى بعضهم لبعض يقولون : «إنَّ محمدًا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا . فلنغزه قبل أن يغزونا» واستنفروا القبائل فلباهم من أقربائهم عدد كبير ، منهم بنو سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبى وهو رضيع .

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النضرى ، وهو فتى جرىء فى نحو الثلاثين يجمع إلى غطرسة الإمارة وحمية الفروسية حدة الشباب ولدد الخصومة والعناد . . فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم إذا رأوا المسلمين «أن يكسروا جفون سيوفهم ثم يشدوا شدة رجل واحد» . فإما فوز وإما فناء . وصفّت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ، ثم الإبل عليها النساء ، ثم صفت النعم فى حراسة لئلا تفر والجيش مشتغل عنها .

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم : ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فسخر دريد برأيه وقال له : رويعى ضأن والله! وهل يرد المنهزم شىء؟ إنها - أى الحرب - إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك . فرماه مالك بالخرف ولج فى عناده ولمح فى بنى هوازن ميلاً إلى كلام دريد ، فجمح به غضبه العارم وأقسم: «لتطيعنى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى!» .

فهى عزمة رجل مستميت لا يبالى ما يصنع بنفسه أو بقومه فى سبيل قهر المسلمين . .

ونمى الخبر إلى النبى ، فخرج فى ألفين من أهل مكة حديثى العهد بالإسلام وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدِموا معه من المدينة ، وقيل إنهم كانوا جميعًا ثمانية آلاف .

وأعوزه السلاح ، فاستعار من بعض المشركين دروعًا فأعطوه ثلاثين أو أربعين درعًا - وقيل مائة درع - بما يكفيها من السلاح ، واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فأعاره إياها وهو يقول : كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين .

وأخرج خالدًا على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سليم .

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء

يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يومًا . فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله : الله أكبر . قلتم - والذى نفسى بيده - كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة!

وكان فى الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المحدثين ، ومعهم فى ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون ، وكان فيهم أبو سفيان الذى قال حين رأى بوادر الهزيمة : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر! وفيهم كلدة بن الحنبل الذى صرخ شامتًا متعجلاً : ألا قد بطل السحر اليوم ، وصرخ معه آخرون يقولون : اليوم ترجع العرب إلى دين آبائها . .

وكان الغالب على جيش المسلمين فى خروجهم قلة الاكثرات بعدوهم ، فقال أبو بكر الصديق : لن نغلب اليوم من قلة . . ونسبت هذه الكلمة إلى غيره ، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ . .

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلاً فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله ، ثم سأل : من يحرسنا الليلة؟ قال أنس بن أبى مرثد : أنا يا رسول الله . فأمره عليه السلام أن يستقبل الشعب حتى يكون فى أعلاه ، وقال له لا نُغَرَّن[1] من قِبلك الليلة .

فلما أصبحوا سأل النبى : هل أحسستم فارسكم؟ يعنى ذلك الحارس المستطلع . . قالوا : يا رسول الله ما أحسسنا ، فجعل عليه السلام يصلى ويلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته قال : أبشروا فقد جاءكم فارسكم . . فجعل ينظر إلى خلال الشجر فى الشعب وإذا هو قد جاء حتى وقف وقال : إنى انطلقت حتى إذا كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرنى رسول الله ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدًا ، فسأله : هل نزلت الليلة؟ قال لا ، إلا مصليًا أو قاضى حاجة .

(١) أى لا يجب أن يباغتنا الأعداء من ناحيتك .

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : «غزونا مع رسول الله حنينًا فلما واجهنا العدو تقدمت لأعلو ثنية ، فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عنى فما دريت ما صنع ، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله ، وأرجع منهزمًا» .

وحدث أبوعبد الرحمن الفهرى قال : «كنا مع رسول الله فى حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر» .

وروى محمد بن إسحق بسنده : «خرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله إليها فأعدوا وتهيأوا فى مضايق الوادى وأحنائه وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليه وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد» .

وفى روايات شتى أن كمينًا من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة فى الوادى وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر ، «وكانوا رماة . . لا يكاد يسقط لهم سهم» فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شىء . .

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى ؛ لأن الخيل فوجئت فى الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر ، فولت منهزمة فى جفلة حيوانية معروفة فى أشباه هذه المواقف . . وقديمًا ذكر الرواة عن حرب الإسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هى سبب الهزيمة التى أصيبت بها الهند ، فانقلبت الفيلة وبالاً عليهم وقضت وهى مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات إلى الفرار ، ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقى الفرس من فيلتهم فى حرب المسلمين مثل هذا المصرع ومثل هذه الجفلة الحيوانية ، يوم تعمدها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم .

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى فى وقعة حنين هذه ، حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار «فصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك ؛ لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم من بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت» .

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول بأن الطلقاء الحديثين فى الإسلام أدبروا منهزمين عمدًا بعد الهجمة الأولى ، فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار .

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لحنينهم إلى الدين القديم ، وعلى كره من بعضهم لأنفتهم من غلبة الأعراب على قريش ، لولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل فى ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئهما فى الموعد المقدور .

فأما الحركة التى جاءت من قِبل المسلمين فهى بروز النبى عليه السلام بشخصه الكريم إلى مقدمة الصفوف . فقد ثبت فى ذلك الهول الجارف ثبوتًا يجل عن الوصف وأخذ زمام المعركة كلها فى يديه ليمضى وحده فى القتال كيفما تصير الأمور .

وكان قد شهد المعركة على بغلته دلدل أو الشهباء ، فانحاز إلى اليمين سريعًا ؛ ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفعة من مدبرين ومقبلين ، والتفت إلى اليمين ونادى : يا معشر الأنصار . . ثم التفت إلى اليسار ونادى كذلك يا معشر الأنصار . . فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا - كما وصفهم شاهدو الموقف - عطفة الإبل على أولادها ، واجتمع معهم حول رسول الله مئات فى لمحة عين .

* * *

وتختلف الروايات فى وصف هذه الحركة المجيدة من بدايتها ، فيقول بعضها إن الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقى وحده ، ويقول بعضها : بل بقى معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبى لهب وعبد الله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثنى عشر ، وجعل رسول الله يقول :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمه العباس أن يصرخ فى الجيش : يا معشر الأنصار . . يا أهل السمرة يا أصحاب سورة البقرة . . يا بنى الخزرج ، وكان العباس رضي الله عنه جهير الصوت يُسمَع صوته على مسافات بعيدة ، وقيل إنه كان يقف على سلع وينادى غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية أميال .

فلما جلجل صوته بهذا النداء ، إذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون : يا لبيك يا لبيك . . ويسرعون إلى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهم ثلاثمائة أو يزيد فى لحظات ، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والإقبال بعد الفر والإدبار ، فإذا بالجيش بقضه وقضيضه يعدو إلى ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه ، وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات ، ومنهن من لم تكن على صحة فى النظر كالعميصاء أم أنس بن مالك ، وكانت وهى حامل تحزم وسطها ببُرد لها وفى حزامها الخنجر لدفاع من يجترئ عليها .

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التوائه فى الهجمة الأولى ، فلم يزل يقاتل حتى سقط مُثقلاً بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحْله ، وهناك وجده النبى عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه .

أما الحركة التى جاءت من قبل المشركين ، فأعانت على هزيمتهم فذاك أنهم قد غرتهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين ، فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال .

* * *

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى أجملناها أن الهزيمة فيها بعد الهجمة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وأنها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها ؛ لأن أسبابها كلها كانت من وراء تدبيره ومشيئته ، وهى كثيرة نجملها ما وسعنا الإجمال .

فمنها أن الروح التى غلبت على جيش المسلمين فى بداية المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث ، وأن الروح التى غلبت على روح المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد مع تقارب العدد بين الجيشين .

وربما رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبى عليه السلام إلى استعارة بعض الدروع والرماح .

و«منها» أن جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء ، قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دخل أو على ضعف يبيتون النية على خذلان النبى فخذلوه وتبعهم الناس .

و«منها» أن جيش المشركين سبق المسلمين إلى مواقفه ، فاختار وأحسن الاختيار ، وهجم فى الوقت الذى ارتضاه .

و«منها» أن المسلمين كانوا يواجهون الشمس عند الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة شعاعها ، فحيل بينهم وبين التثبت والإحكام فى مطلع الصباح إلى أن استوت الشمس فى كبد السماء .

و«منها» أن استطلاع المسلمين لم يكن على عادته من البراعة والتيقن والإسراع ، فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبى عليه السلام مرات ، ثم جاء ولم يخبر بشىء ، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه فأوقع بالخيل وهى لا تحسب له أى حساب ، وهذا مع مهارة المشركين فى الرماية حتى قيل إنهم لا يسقط لهم سهم .

و«منها» أن بنى سليم أصحاب الخيل التى تولاها خالد كانوا على قرابة من هوازن ، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد استدارة المعركة ، فكانوا يقولون : ارفعوا القتل عن بنى أمكم . . وكانوا مع هذا ضعاف الإسلام فسبقوا إلى الردة بعد موت النبى عليه السلام ، وما زالوا فى موضع الظنة بعد ذلك على عهد الخلفاء .

فتقدير النبى ﷺ لخالد بن الوليد إنما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيوش فى مؤتة وبنى جذيمة وحنين ، وكأنما هو تقويم الجوهرى الخبير للجوهر النفيس فى معدنه الخفى غير مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يضفى عليه من جمال الصوغ والضياء .

ونعود هنا فنقول : إن تقدير النبى عليه السلام خالد بن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بنى مخزوم ، فإنه عليه السلام لم يجامله فى وصفه الذى طابقته حوادث الأيام ، ولم يجامله حين قدم عليه فى القيادة ثلاثة من السابقين فى الإسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين ، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن بن عوف ، فغضب النبى عليه السلام وقال له معرضًا : «يا خالدُ ذر أصحابى . لو كان لك أحد ذهبًا فأنفقته قيراطًا فى سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن» .

إنما هو سيد السادة ومربى الرجال والأبطال ، يقوم الأعمال بقيمتها وينزل العظماء فى منازلهم ، ولا يمنعه أداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار .

وقد تولى خالد للنبى أعمالاً أخرى فى سنوات صحبته الثلاث ، ولكن الأعمال التى اخترناها هى أكبر أعماله فى حياته عليه السلام ، وهى أقرب الأعمال إلى

وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه ، ولكنه أريد لكل عمل صغير ، كما أريد لكل عمل كبير ، وكانت للنبى عليه السلام نظرة فى كل مهمة مقدورة ندبه إليها . .

فمن مهامه الصغيرة تسييره فى ثلاثين فارسًا لهدم «العزى» بعد فتح مكة ببضعة أيام ، وهى الصنم الذى كان أبوه يتمسح به وينحر له الإبل والغنم ، وكان سدنته من بطون بنى سليم الذين قاتلوا مع خالد فى مقاوم شتى ، وقد كان معبود القبائل التى لقيها المسلمون فى يوم حنين ، وأصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون أن ربهم كان يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها . . وظلت مخوفة إلى ما بعد الإسلام ، فيقول الكلبى : «إن اللات والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة من صنيع إبليس وأمره» وهى التى أرجف من أرجف من المشركين أن القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها ويجعلون منه قولهم : «اللاة والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى» .

فهى مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وإن سهلت من الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى إليها فهدمها ، وجاء فى بعض الأقاويل أنه : «لما انتهى إليها جرد سيفه فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، فجعل السادن يصيح بها :

« أعزى » إذا لم تقتلى المرء خالدا فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فأخذ خالدًا «اقشعرار فى ظهره» وضربها بالسيف فشقّها ، ثم لقى النبى فقال له : الحمد لله الذى أكرمنا بك وأنقذنا بك من الهلكة ، لقد كنت أرى أبى يأتى العزى بخير ما له من الإبل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثًا ثم ينصرف إلينا مسرورًا ، ونظرت إلى ما مات عليه أبى وإلى ذلك الرأى الذى كان يعاش فى فضله وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع» . فقال عليه السلام : «إن هذا الأمر إلى الله ، فمن يسره للهدى تيسر له ومن يسره للضلالة كان فيها» .

وكذلك بلغت العبرة إلى خالد قبل أن تبلغ منه إلى الناس .

❋ ❋ ❋

ومن المهام التى ندب لها فى حياة النبى مهمة يمتزج فيها الشك بالأمل ، والرفق بالشدة ، والترغيب بالترهيب ؛ لأنها بعثة إلى أناس غلابين مجتمعى الرأى أولى عصبة وبأس وحنكة ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب فى معظم أنحاء الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران .

أرسله إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، فإن استجابوا قبل منهم وإن يفعلوا فله أن يقاتلهم ، فخرج إليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد ويبصرونهم بفضائله وأحكامه ، فاستجابوا له ودخلوا فيما دعوا إليه .

وأقبل وفد من عظمائهم على النبى - بأمره عليه السلام - فقال حين رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟ قيل : يا رسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث ابن كعب ، ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين ، فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين إذا زجروا استقدموا؟ وأعادها ثلاثًا وهم لا يجيبون ، فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن عبد المدان وفيه شوس وخيلاء : نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زجروا استقدموا ، وكررها أربعًا ، فقال النبى : لو أن خالدًا لم يكتب لى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم ، فانطلق ابن عبد المدان يقول : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا . قال : فمن حمدتم؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله .

قال : صدقتم ، ثم سألهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قالوا متغضبين : لم نكن نغلب أحدًا ، قال : بلى . كنتم تغلبون من قاتلكم ، فعادوا يقولون : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدًا بظلم .

قال : صدقتم . . وقفلوا إلى ديارهم ، فأرسل إليهم عمرو بن حزم يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم الصدقات .

* * *

وقد شهد خالد مع النبى عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاء واشتباك ، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك .

وكانت غزوة الطائف تتمة لوقعة حنين ، لاذت بها القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها ، وجمعت من الميرة ما يكفيها إلى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنبل كأنهم أسراب الطير ، وقتلوا وجرحوا وهم متمكنون فى أسوارهم ، فبرز خالد لهم يدعوهم إلى النزال ولا يجيبه أحد ، ثم صاح به عبد ياليل عظيم ثقيف : لا ينزل منا أحد ولكن نقيم فى حصننا ، فإن فيه من

الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعًا حتى نموت عن آخرنا» .

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة فى الحصن . فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد المحماة فأحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور .

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون : دعها لله والرحم . فقال عليه السلام : «أدعها لله والرحم» ، واستشار نوفل بن معاوية الديلى فى أمرهم فأجابه : «يا رسول الله . ثعلب فى جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك» .

وفى الطريق ، قسم النبى غنائم حنين قسمة لم ترض أناسًا ، فغضب رجل من المنافقين وصاح فى حضرته : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فاحمر وجهه عليه السلام غضبًا وقال له : ويحك ، من يعدل إذا لم أعدل؟ ووثب خالد وعمر يستأذنانه فى ضرب عنقه فأبَى وقال : لا . . لعله أن يكون يصلى ، فقال خالد : وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس فى قلبه؟ فعاد النبى يقول : إنى لم أومر أن أنقب عن قلوبِ الناس ولا أن أشق عن بطونهم .

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبى عليه السلام إلى حدود الروم سنة تسع للهجرة فى أعظم جيش شهده المسلمون فى حياته . . ومن ثمَّ ، أمر خالدًا أن يذهب إلى دومة الجندل ليأتيه بالأكيدر أميرها ؛ لأنه كان فى وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينًا للروم وحربًا للقوافل يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة ، ومن خبرة النبى عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم أنه قال لخالد : «ستجده يصيد البقر» . . فكان كما قال .

❊ ❊ ❊

وقد ذهب خالد إلى الدومة فى أربعمائة وعشرين فارسًا فاقتحم الحصن واضطر من فيه إلى التسليم ومنهم الأمير ، وجاء به إلى المدينة فصالحه النبى على الجزية وعاهده على الأمان .

وثمَّ بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ، ولم يندب لمثلها قط فى عهد النبى

ولا عهود خلفائه ، وتلك بعثته إلى بنى مراد وزبيد ومذحج باليمن ، يدعوهم إلى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه .

قيل إنه مكث فيه أشهرًا يدعوهم فلا يجيبونه ، وإنه عليه السلام بعث بعده على بن أبى طالب وأمره أن يقفل خالدًا ومن معه ، فإن أراد أحد أن يعقب معه تركه .

ولا غرابة عندنا فى هذا الذى حدث - إن كان قد حدث على الوجه الذى ذكره الرواة - فإن خالدًا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبى سنين بعد سنين ، وإنما هى سنوات قلائل لم يفرغ فيها إلا بضعة أشهر من الغزوات والبعوث ، وقد أم الناس بالحيرة - فى خلافة الصدِّيق - فقرأ من سور شتى ، ثم سلم والتفت إلى الناس معتذرًا يقول : «شغلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن» .

***

ويجوز أن النبى عليه السلام أرسله فى هذه البعثة ؛ ليدربه على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويجوز أنه عليه السلام تعمَّد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معد يكرب - فارس زبيد - ندًا له يكف من غربه ويلزمه التدبر فى عاقبة نكثه وانتقاضه .

وفى تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارئ فى بعض وقائعها وأغراضها فيجوز أيضا أن البعثة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق وأن الرواة قد فاتهم فى هذا الصدد شيء كثير أو قليل من التحقيق .

لكنها كائنًا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها - لو ندب إلى عشر من أمثالها- لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه من البطولة وصدق البلاء . وليكونن بها أو بغيرها خطيبًا يبين من منبر التاريخ ، وإن لم يحمله قط منبر التعليم .

٦ حروب الردّة

لتفصيل الكلام فى حروب الردة مكان غير هذا المكان . .

لأننا نتناول منها فى هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم خصائصه ومزاياه ، وندع ماعدا ذلك لمكانه من الشروح والمطولات .

وقد رجعت الردة - كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية - إلى أسباب مختلفة ولم تنحصر فى سبب واحد ، وربما كان من أسبابها ما خفى على المؤرخين ولا يزال خافيًا علينا حتى الآن ، ولكننا نعتقد أن الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها ، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها .

فمن أسباب حروب الردة تمرد القبائل القوية على قريش ، وأقواها القبائل التى تنتمى إلى ربيعة دون مضر ؛ فإنها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة ، وصرح بذلك طليحة النمرى حين لقى مسيلمة زعيم بنى حنيفة ومدعى النبوة فى اليمامة ، فقال : أشهد أنك كذاب ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر .

وكان مسيلمة هذا يقول : إنه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش «ولكنَّ قريشًا قوم لا يعدلون» .

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من المنافسة بين مضر وربيعة ، فإن المنافسة فى الأقربين أشد وأيقظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود فى كل قبيل ؛ فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة ، وروى عن عيينة بن حصن مثلما روى عن طليحة النمرى إذ قال يؤيد المتنبئ طليحة بن خويلد : «نبى من الحليفين أحب إلينا من نبى من قريش» ، ويعنى بالحليفين بنى أسد وبنى غطفان .

وكانت قريش تقابل مثل هذه النفرة بمثلها فى أيام خصومتها للنبى وثورتها عليه . فكان صفوان بن أمية مشركًا فى وقعة حنين ، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن وحلفائها ، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها : «اسكت فض الله

فاك . أتبشرنى بظهور الأعراب . . والله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىَّ من أن يربنى رجل من هوازن» .

ومن أسباب الردة ، ثورة البادية على الحاضرة . . فما زال من دأب البادية فى كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها ، ولم يشذ عن هذه السنة إلا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين ، وكانت تحتكم فى خصوماتها إلى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها إذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون ، وأسرع بعضها إلى تلبية الدعوة ، فحارب فى صفوف المسلمين .

ومن أسباب الردة ، نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة . . فإن هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر فى بلوغ مثل هذا المطلب الجليل . .

فما هو إلا أن استقر الأمر لمحمد فى الحجاز وما حوله حتى اشرأبت الأعناق للاقتداء به ، وظن من ظن أنهم قادرون على ما قدر عليه وأن المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع وقيادة وأتباع ، وقصرت عقولهم عن إدراك سر القوة الأصلية التى هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم ، وهى أن دعوته مطلوبة لإصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة فى العالم كله وليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق مجد مرموق . . فنجم الدعاة فى حياة النبى باليمن ، ونجد ، والبحرين ، لمجاراة الدعوة بالحجاز ، وجاءت وفاته عليه السلام إثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان .

ومن الأسباب التى أثارت القبائل ، فريضة الزكاة التى فرضها الإسلام على كل مستطيع ؛ فإنها أثارتهم لضنهم بالمال ، وأنفتهم من الإتاوة ، وخالفت ما ألفوه حتى من أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ؛ لأنهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما يعطون ، وكانت الإتاوات التى يرضخون منها أقل من المنح التى توزع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع أو الهبات .

بل كان منهم من ضاق ذرعًا بالفرائض فأسقطها الدعاة عنهم جميعًا وأعفوهم من كل فريضة ، ومنهم من أنف من السجود ، فقال لهم طليحة الأسدى : «إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، فاذكروا الله قيامًا ، فإن الرغوة فوق الصريح» .

ويلحق بهذا وأشباهه أن الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد فى نفوس الأقصين من أعراب البادية ، ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية فى العبادة والمعيشة ،

وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهوا بالمفاجأة من قبلهم ، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ .

وليس أقرب إلى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبى وشيوع الفتنة والاضطراب عن أيمانهم وشمائلهم ، مع إغراء الدعة وفرط الحنين إلى القديم وهو منهم جد قريب .

* * *

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع والنص الصريح ؛ وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية . . كل منها بما يوائمها وبما هى قادرة عليه .

وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب أولياء الروم ، وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية ، فهؤلاء يدينون بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدع أو مدعية للنبوة ، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقيعة ، أما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التى تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر ، ولم يجدوا حرجًا من عقيدتهم أن يسمعوا إلى المتنبئين والمتنبئات ؛ لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجًا من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرضاها أتباع كتاب ؛ فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت فى التبشير بدينها العجيب مسلكًا لا يستريح العقل إلى تفسيره بغير تفسير واحد ، وهو أنها كانت تعمل لغرض سياسى وبإغراء دولة أجنبية ، ولا تعمل لغرض دينى ولا بدافع من عندها وعند ذويها .

فسجاح هذه كانت من بنى يربوع أقرب بطون بنى تميم إلى نفوذ فارس ، ثم تزوجت فى أخوالها التغلبيين بالعراق ، ثم انحدرت من ثم إلى أرض بنى تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبى عليه السلام ، وانحدر معها جيش كثيف لا يُستهان بأمره ، فلما دعت قومها الأولين بنى يربوع إلى هذا الدين طلبوا إليها ـ على ما يظهر ـ أن تؤلف بطون بنى تميم جميعًا إلى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين ، فلم يتفق بنو تميم على رأى ، وتركتهم إلى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على الإسلام ، ولم يكن أوفق لهما بهذه

المثابة من التعاهد على غرض واحد ؛ هو الزحف على الحجاز ولكنها رجعت إلى قومها وهى تقول : «إنها وجدته على الحق فتزوجته» وأنه سيؤدى لها نصف غلات اليمامة وقد استنجزته شطر هذا النصف قبل مرجعها إلى بلادها . .

فلماذا خالفها بنو تميم؟ ولماذا خالفها مسيلمة؟ ولماذ انحدرت ثم عادت إن كان همها التبشير بدين جديد؟ ولماذا هابها مسيلمة وأعطاها الجزية وهو يأنف أن يعطيها خليفة المسلمين ويجرد لحربه جيشًا قيل إن عدته أربعون ألفًا وقيل : بل ستون ولم يقل عن عشرين ألفًا فى تقدير أحد من المؤرخين؟

كل أولئك ، لغز سخيف لا يقبله العقل إلا على وجه واحد ، وهو أنها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ، ومن ثم أصابت ما أصابت من الإخفاق أو النجاح .

ويعزز ذلك أنها لقيت فى رحلتها عملاء فارس جميعًا من أبناء البوادى العراقية والنجدية ، وأنها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم . .

قال ابن الكلبى : «كانت عير[1] كسرى تبذرق - أى تحرس - من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة ، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة ، وتجعل لهم جعالة ، فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن» .

وعلى هذا ، تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التى لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها .

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد عاملوها المعاملة الواجبة لمن يعتز بصولة الأكاسرة ويخلف المناذرة فى وقت واحد .

فقد هدمت وقعة ذى قار ، التى مر ذكرها بأول هذا الكتاب ، هيبة الأكاسرة فى الجزيرة العربية .

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة - ملوك الحيرة - الذين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم فى إخضاع البادية القريبة والبعيدة ، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل ، فأرسل الأكاسرة أميرة تغلبية ؛ لتخلف المناذرة فى هذه المهمة القديمة .

(١) العير : القوافل .

وكان اختيارها من بنى تغلب أدنى شىء إلى المعقول والمنظور ؛ لأنهم أعداء بنى بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم فى وقعة ذى قار .

ثم كان تردد بنى تميم وبنى حنيفة فى معاملتها أدنى شىء كذلك إلى المعقول والمنظور ؛ لأنهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم ، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على إغضاب فارس . . وغاية ما فى وسعهم ، أن يصرفوا سجاح راضية ويقنعوها بأن الثورة على الإسلام حاصلة ، ويكون عملهم جميعًا معقولاً على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح على كل تفسير سواه .

بل نحن نخطر هذا فى أخلادنا ، فنفهم كيف اشتد التغلبيون فى حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون فى حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الإسلام وجيوش الأكاسرة على إثر حروب الردة ، فهى شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعد بداية . وكانت رحلة سجاح إلى الجزيرة العربية هى أولى الطلائع فى حرب الأكاسرة والإسلام .

* * *

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول : إن المدينة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها فى وجه البادية العربية بأسرها ، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين فى هذه المعركة .

وقد كانت حروب الردة طائفًا من الشر لاشك فيه .

ولكنها ولا ريب لم تكن شرًا محضًا خلوًا من جانب المصلحة والفائدة ؛ لأن هذه الحروب وحدت عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق ، فاجتمعت منهما قوة تكافئ كل قوة فى البادية على انفراد ، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب . .

ولولا حروب الردة ؛ لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليقًا أن يتشعب ويستفحل ، وكان الأنصار فيما بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعًا صغارًا فى كل من الشيعتين ، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش ، فإن بنى هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم إلى كلمة ، ولم يكن لهم مطمع فى الوفاق بينهم وبين بطون قريش الأخرى ، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين .

فلما تحفزت البادية للوثوب على المدينة ، أحس المسلمون جميعًا أنهم فريق واحد ، مهدد بخطر واحد ، فاتفقوا بوحى البداهة التى لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض ، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة إلى الوفاق ، وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار .

وغنى عن القول ، أن خالد بن الوليد كان فى وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية ؛ بداعى العقيدة الإسلامية ، وداعى العصبية القرشيّة ، وداعى النشأة الحضرية ، وداعى القيادة العسكرية التى قدمته إلى طليعة المجاهدين فى هذا الميدان .

فشهد حروب الردة من أوائلها إلى نهاياتها ، وقسمت له الحصة الكبرى فى أهم وقائعها وأعصب أوقاتها ، ومنها وقعة واحدة ترجح بها جميعًا وتعد من حروب الإسلام الحاسمة فى صدر تاريخه ، وهى وقعة اليمامة التى انتصر فيها بعد هزيمة قائدين .

وتنقسم أعمال خالد فى حروب الردة إلى قسمين : أحدهما الذى اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما جاورها ، والآخر الذى استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية ، وهو أعظم عملية فى هذه الحروب .

* * *

توفى النبى عليه السلام وجيش أسامة بن زيد فى الجرف من أرباض المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع برءوسها ، فعاد فريق منه إلى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجئ مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن فى عقر داره خلال تلك الغاشية ، فأبى أشد الإباء أن يخلف وصية للنبى أوصى بها فى مرض وفاته ، وقال قولته المأثورة : «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة» ونادى فى المسلمين : ليتم بعث أسامة! ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف . .

وسار الجيش إلى وجهته كما أراد .

فخلت المدينة من الجند إلا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار ، ودرى أقرب المرتدين إليها بحالها من العزلة وقلة الحامية ، فزحفوا عليها ، وظنوا أنهم إذا

هددوها وهى عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه - رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه ؛ وهو إقامة الفرائض كلها والإعفاء من الزكاة . . أو من الجزية كما سموها!

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة ، وتركوا شطرًا من جموعهم فى الربذة حيث تلتقى طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلاً من المدينة ، وساروا بالشطر الآخر إلى ذى حسا وذى القصة وهى أقرب محلة إليها ، ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس فى بيوتهم ويتوسلون بهم إلى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه . فأبى إباءه الذى لا ينثنى وقال : لو منعونى عناقًا لجاهدتهم عليه .

فقفلت الوفود إلى جماعاتها ، وعلم الخليفة بقفولها ، وأخذ فى التأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الإيمان . فلم يدع شيئًا قط يستعد به للخطر المنتظر إلا أعده فى أوانه وعلى الوجه الأمثل فى تلك الأحوال . .

فأقام كبار الصحابة على الأبواب ، وجمع فى المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين ، وأرسل العيون على الطرقات من كل سبيل ، فما هو إلا أن جاءوه بنبأ القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ، ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه ، ودهم من كان منهم بذى القصة فذعروا لهذه البغتة التى لم تكن لهم على بال ، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم فى ذى حسا فثبتوا هناك للمقاومة ، وقيل إنهم تحيلوا على إبل المسلمين التى لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء المنفوخة فى وجوهها ؛ فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت ، فأطمعهم ذلك فى الهجوم على المدينة ، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة . .

إلا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصمًا بالمدينة كما انتظروا ، بل خرج بمن معه فى هزيع من الليل على تعبئة كاملة ، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة فلم يلبثوا قليلاً حتى تفرقوا وارتدوا ، ولم تقم بعدها قائمة فى هذه المحاولة الخاسرة ؛ لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع ، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو غرة بعد ما أعياهم أخذها وهى قليلة الحامية مفتوحة الطريق .

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الإسلام . . ظفر فيها المسلمون ؛ لأنهم اعتصموا بحزم الإيمان وحزم التدبير وحزم الوفاق ، وانخذل فيها المرتدون ؛ لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث ، فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة

الرأى وعزيمة الكلمة الواحدة ، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمةً وفعلاً لفاتهم طلاب ذلك ؛ لقلة الكلأ والماء الذى يكفيهم مجتمعين . فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم ، وعوضهم من قلة الجند رجحانًا يقابلون به الكثرة وهى منحلة الوثاق .

ومن عجائب الخليفة الصديق ، أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يقال لم يدع مزيدًا للحيلة والتدبير ، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال إنه لم يدع مزيدًا للإيمان . .

ففى هذه الفترة التى شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله إلى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة ، وتمشى بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخبطون مضللون . .

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية فى جوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال .

ومضى رسوله «عدى بن حاتم الطائى» إلى قومه بنى طيئ وهم يترددون : فريق يعصى الخليفة ويلحق بالمتنبئ الأسدى طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار ، فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على إرهابهم مصير عبس وذبيان ، وأنذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قبل لهم بدفعه من تلك الأمداد التى تتدفق على المدينة أو يثوبوا إلى الإسلام وإيتاء الزكاة . فأصغوا إليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من إخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعدوه أن يدخلوا بهم جميعًا فى زمرة جيش المسلمين .

* * *

إلى هنا انتهت المرحلة الأولى التى اشترك فيها المسلمون جميعًا بقيادة الخليفة لمدافعة المرتدين عن المدينة ، وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين .

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيها الأعمال بين القادة فى شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش أسامة ، وهدأت سورة القيظ وبدأ الخريف ، وأصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعوث إلى المتنبئين فى مواطنهم ؛ ليعجل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه .

ففى أول هذه المرحلة ، نرى خالدًا بـ«ذى القصة» حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والأنصار ، ووجهته إلى «بزاخة» من أرض بنى أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم إلى المتنبئ القائم بأمر الردة هناك طليحة ابن خويلد .

وربما كان الصحيح أن خالدًا إنما استقل فى أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكرى فى تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها ، إذ كانت هذه الخطة متفقًا عليها بينه وبين الخليفة ، وكان الخليفة اليقظان يأمره بما يصطنع خطوة بعد خطوة ، وينبهه إلى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته ، ويصحبه إلى بداية طريقه .

قال الخليفة وهو يودع الجيش : «أيها الناس ، سيروا على اسم الله وبركته ، فأميركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم . فإنى خارج فيمن معى إلى ناحية خيبر حتى ألاقيكم» .

ثم خلا بخالد وأسرَّ إليه أمرًا ، ثم قال : « . . . عليك بتقوى الله ، وإيثاره على سواه ، والجهاد فى سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وإذا أتيت دارًا فاقحم . فإن سمعت أذانًا أو رأيت مصليًا أمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فإن لم تسمع أذانًا ولم تر مصليًا شن الغارة ، فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس . . . وإذا لقيت أسدًا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة . . سر على بركة الله» .

ولم يكن الخليفة على نية المسير إلى خيبر كما أعلن أمام الناس ، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش إلى «بزاخة» نصًا لمقاصد متعددة : منها أن يخيف بطون طيئ

حين يقصد إليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التى تهجس فى صدورهم ، ومنها أن يقنع طليحة بإرسال من عنده من طيئ لنجدة إخوانهم والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه إلى غير «بزاخة» ومنصرف عنها إلى حين ، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا فى قتال . .

وقد عمل خالد بهذه الخطة ، فمضى فى طريق «بزاخة» ، ثم عرج إلى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيئ ، وهناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل .

* * *

وقبل أن يستوى خالد فى طريقه إلى «بزاخة» جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بنى أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية . ولم يكن عدى بن حاتم على رأى قومه فقال لخالد : لو ترك هذا الدين أسرتى ، الأدنى فالأدنى من قومى لجاهدتهم عليه . أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم؟ . . فلم يشأ خالد أن يُكره أناسًا على حرب من يسالمونهم ولا يتحمسون فى قتالهم ، وقال لعدى : «لا تخالف قومك ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، والله ما قيس بأوهن الشوكتين . امضوا إلى أى القبيلتين أحببتم» .

وأتم تعبئته للقتال وهو على الطريق ، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء . .

أما طليحة ، فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة ، فإنه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم إلى «بزاخة» ، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبة وفرار ، فعزل أكثر النساء فى مكان أمين ؛ لئلا يقعن فى السبى إذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسًا من أشد فتيان بنى أسد ليدرأوا الهجمة عنه ، كأنه كان يعلم أسلوب خالد فى قتاله ، إذ كان وكده قبل كل وكد أن ينحى بالضربة المصمية على رئيس القوم فيفت فى أعضاد القوم جميعًا بقتله أو إكراهه على الفرار ، ولم يكن طليحة جبانًا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره ، بل كان مشهورًا بالشجاعة معروفًا عنه أنه أقسم لا يدعوه أحد إلى مبارزة إلا أجابه ، ولكنه كان على شجاعته أميل إلى الحذر والحيطة منه إلى المجازفة

والحماسة ، وكان فى هذه الخصلة نقيض نده الذى يصاوله وينازله بالسلاح والأخلاق ، فكان خالد أقرب إلى المجازفة والحماسة منه إلى الحذر والحيطة .

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة . . فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحًا فى دياره على خلاف جيش المسلمين الذى كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال فى الأودية والجبال .

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التى تأتى فى إبانها وتدور برحى الحرب من طرف إلى طرف فى ساعات معدودات .

فلما التحم الجيشان ، ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت ، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة وانقضت هنيهة خيل فيها إلى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بنى طيئ إلى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيئ ويستدرج المرتدين إليها ، فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلاً : لا أعتصم بغير الله!

ثم عول على الكرة فى كبة الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه ، فأرسل فرسه وترجل مقاتلاً على قدميه ؛ ليملك الحركة حيث يشاء ويبعث القدوة فى قلوب صحبه ، ونادى بالأنصار كأنه ذكر موقف النبى يوم حنين : يا أنصار الله . . فلبوه مندفعين إليه ، وثاب أبناء القبائل إلى مواضعهم فاستحر القتل فى الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعًا ، واستقر هو فى «دثار الكهانة» يوهمهم أنه يتلقى الوحى أو ينتظر المدد من السماء .

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضاة لكبرياء القبيلة فى أنفسهم ، فلما جد الجد أحبوا أن يروا لهذا الإيمان علامة ، وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين : هل جاءك جبريل؟ قال : لا . . ثم رجع له مستعجلاً وحى السماء صائحًا به - وقد نسى فى غضبه أنه يخاطب على زعمه نبيًا من الأنبياء - : لا أبالك أجاءك صاحبك؟ قال : لا . . فصاح به : حتى متى؟ قد والله بلغ منا . فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول وقال له : نعم . . جاءنى وأوحى إلىَّ «أن لك رحى كرحاه ، وحديثًا لا تنساه . .» فسخر منه عيينة وقال : «نعم . . هو حديث لا تنساه» ، ونادى فى قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة

وإدبار أمره : انصرفوا يا بنى فزارة . . إنه لكذاب ، وجعل طليحة يسألهم من حيرته ما يهزمكم؟ فأجابه أحدهم : «أنا أحدثك ما يهزمنا ، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنا لنلقى قومًا كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه» .

وأدرك طليحة حذره ، وكان قد أعد لهذا الحذر عدته ، فركب فرسه وأردف امرأته النوار على راحلة وراءه ، ونجا بها وهو ينادى أتباعه :

«من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل» ، ومازال فى فراره حتى لحق بالشام .

* * *

وتعقب خالد فلول المرتدين ومن مالأهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم فى «ظفر» حيث أحاطوا بسلمى أمِّ زِمْل وهى كأمها من قبلها مضرب المثل فى العزة والمنعة . كان يقال عن أمها «أعز من أم قرفة» ؛ لأنها تعلق فى بيتها خمسين سيفًا ، كل سيف منها لرجل من ذويها ، وقد سبيت هى فى عهد النبى عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشة رضى الله عنها ، فذهبت إلى قومها مغضبة لتلك العزة التى انتهى بها عناد قومها إلى الأسر والخدمة ، واستثارت حمية الرجال بهذه الغضبة التى تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع إليها بواعث أخرى للغضب والثورة . . فدار بين خالد وبين جيشها أحر قتال ، ووقفت هى على جمل مشهور تضرم النخوة فى قلوب جندها ، وترد الشجاعة إلى من أدبر للفرار ، ومضى اليوم وهى تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون ، فجعل خالد مائة من الإبل لمن يصيب الجمل . . وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه ، وقيل إنهم لم يصلوا إليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين .

وقد تفرقت سرايا خالد فى أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو إلى الإسلام .

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأوليين ، وهما : الإنذار والتغلب على الفتنة ، وبقيت مهمته الأخيرة وهى القصاص والتأديب ، ولعلها كانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش ؛ لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا فى التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات التى يتورع عنها المقاتل الكريم ، وأصابوا أولئك العزل المنفردين فى غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال ، فكانت أوامر الخليفة إلى خالد صريحة ألا ينى فى عقاب المعتدين «ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتله ونكل به غيره» .

ولم يكن خالد فى مواقف الصرامة والبطش بحاجة إلى توكيد وتشديد ، فلم يقبل من المرتدين إلا أن يأتوه «بالذين حرقوا ومثّلوا وعدوا على المسلمين» . ومثل بهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم ، وقاد رؤساءهم فى جوامع الحديد إلى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء .

وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف ، ولكن لا شك أنه عادل فى شرعة الحرب والسلم ، وأنه لازم كل اللزوم فى أحوال كتلك الأحوال .

وأيًا كانت المثلات بالمرتدين ، فهى على التحقيق لا تتجاوز المثلات التى تؤمر بها «حملات التأديب» فى عصرنا هذا لمعاقبة أناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون ، ولم يقرنوا فِعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ، ولا بتهديد «الدولة» فى كيانها وهى أحوج ما تكون إلى الأمان والضمان . .

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدًا على الإمعان فى تأديبه على النحو الذى نحاه ، فقال عمر بن الخطاب للخليفة مُنكرًا إحراق الناس : بعثت رجلاً بعذاب الله؟ انزعه!

فلم يستمع إليه الخليفة ؛ لأنه كان فى حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربًا من ضروب العقاب .

ومهما يكن من مجاراة هذا العقاب لطبع خالد - فهذه البعثة بين بعثاته جميعًا هى بعثة التنفيذ المحض الذى لا يشوبه نصيب من الاستقلال ، اللهم إلا استقلال القائد الكفء بحسن القيام على ما وكل إليه . .

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال إلى أعمال خالد المستقلة فى بقية حياته أن نتحرى نصيبها من إطاعة الأمر ، ونصيبها من الإقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه .

فيجوز لقائل فى هذا الصدد أن يقول إن الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة فى بعثة «بزاخة» وإنما أفضى خالد بهذه الخطة إلى الخليفة فأقرها ووافقه عليها .

ذاك جائز غير ضعيف الجواز ، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها إلى يائها ، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الإقرار والموافقة ، ويميل بنا إلى

هذا الترجيح أن نصائح الخليفة فى بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر ، وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين فى كل قبيلة وكل ميدان ، وأن الخطة قامت على التورية والسبق بالهجوم ، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبى عليه السلام ، إذ كان مأثورًا عنه أنه كان إذا قصد وجهة ورّى بغيرها ، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين إليه ، وقد جرى الخليفة على ذلك فى دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد .

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد إلى بنى تميم - بعد معركة البزاخة - قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم . قيل إن الأنصار أنكروا عليه المسير إلى بنى تميم وقالوا له : ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا» ، فقال لهم خالد : «إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى ، وأنا الأمير وإلىَّ تنتهى الأخبار ، ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة إن أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى أنتهزها» .

بل قيل أكثر من ذلك ، إنه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالإغارة عليها . وهى أهول حروب الردة بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم .

فزعم قوم أنه قال لصحبه بالبطاح : والله لا أنتهى حتى أناطح مسيلمة ، فأبَى الأنصار وقالوا : هذا رأى لم يأمرك به أبو بكر فارجع إلى المدينة ، فأصر على رأيه وقال : لا والله . حتى أناطح مسيلمة ، فرجعت الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا ، ولئن هزموا لقد خذلناهم ، فرجعوا إليه ومضى بهم إلى اليمامة . .

والذى لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدًا غير خالد إلى بنى تميم ، ولو بعث غيره لصح أن يقال إنه سار إليهم غير مأمور ، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذى القصة : «إذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له» .

أما اليمامة ، فقد بعث إليها الخليفة عكرمة بن أبى جهل ثم رأى حاجته إلى المدد فوجه فى أثره شرحبيل بن حسنة ، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة ، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده ، فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد فنكب نكبة شديدة ، وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة ، فكتب إلى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره ، ولم يقل أحد إن الخليفة وجه قائدًا غير

خالد لنجدة شرحبيل ، ولا كان معقولاً أن يكتفى بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده فى حاجة إلى التعزيز والإمداد .

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدًا بشأن اليمامة قبل خروجه إلى البزاخة . . . وليس ثمة من داع إلى الشك فى نسبة ذلك المقال إليه ، ولا إلى الشك بعد هذا جميعه فى تولية خالد قيادة الجيش الذى سار إلى اليمامة . .

ومن المتواتر جدًا أن خالدًا لقى الخليفة بعد مسيره إلى بنى تميم وقبل مسيره إلى بنى حنيفة ؛ لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ليلى ، فهو قد توجه إلى اليمامة مأذونًا مأمورًا بعد وقعة البزاخة وبعد وقعة بنى تميم وعدا هذا كله ، يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدًا قد تولى حربًا كحرب اليمامة ، اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الأهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح .

* * *

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية فى ذى القصة أن الخليفة عرف خطرها ؛ فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه المختلفة . . وأراد فى الوقت نفسه أن يشغل بنى حنيفة بأنفسهم ، فوجه إليهم عكرمة أولاً ثم وجه شرحبيل بعده ليتلاقيا معًا ، ويكون خالد قد فرغ فى خلال ذلك من أمر بنى أسد فيدرك سابقيه معززًا لهم إن تعذر عليهم أن يقهروا بنى حنيفة قبل قدومه ، وهى خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة ، ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالدًا أن يرجع إليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شىء فى غيابه .

وفحوى الأقوال الكثيرة التى تتفق بالبداهة على هذا النسق أن خالدًا قد تولى التنفيذ فى ترتيب أعماله وتولاه أيضًا فى أوائل خططه ، ولكنه قد وكل إلى نفسه فى الأمور التى يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب . . ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء ، فقام بما وكل إليه جميعًا على أكمل الوجوه وأقمنها بموافقة الخليفة ، إلا فى موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج : أحدهما فى البطاح ، والآخر فى اليمامة . . فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة ، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الإسلام .

وظاهر من مقال الخليفة فى ذى القصة أنه لم يكن على يقين من عداء بنى تميم ، أو من ضرورة القتال فى أرضهم ، وإنما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين إليهم ، وبخاصة بعد وفود زعماء منهم بإعلان الطاعة وإيتاء الزكاة .

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضي الله عنه قد كان يعمل عمله فى حروب الردة جميعًا وهو على استطلاع وثيق وعلم وافٍ بأحوال كل طائفة من المرتدين ، وإن من دواعى انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ، ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء .

فتقديره لموقف بنى أسد منذ البداية كان أصح تقدير .

وكذلك كان تقديره لموقف بنى حنيفة فى اليمامة . .

ومثل هذين فى صحة الإلمام بالأحوال المختلفة شكه فى ضرورة القتال بالبطاح ، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط ، وتخصيصه مالكًا بالذكر دون الآخرين من زعماء بيوت بنى تميم .

فالواقع فى أمر بنى تميم - كما نعلمه اليوم - أنهم لم ينطووا على خطر جسام ، وإن اختلفت فى نياتهم الظنون .

وتاريخهم قبل الإسلام بعشرات السنين ؛ يؤكد هذه الحقيقة ، ويوحى إلى الخليفة رأيه الذى ارتآه .

كانوا فى أجهل أيام الجاهلية فى طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى .

وكانوا يجترئون على المغامرات التى تفرق[1] منها القبائل الأخرى ، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التى تسير فى رعاية الدولة الفارسية وحراسة أناس من بنى حنيفة . وفارس دولة ضخمة يهابها العرب ، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان . فلما استشار كسرى بعض زعماء بنى حنيفة فى عقوبتهم قال له : «إن أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة ، فإذا فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معى جندًا من أساورتك ، فأقيم لهم السوق ، فإنهم يأتونها ، فتصيبهم عند ذلك خيلك» .

(١) تفرق بفتح التاء والراء أى تخاف .

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة فى سنة مجدبة ، واستعان عليهم بمن يستدرجهم إلى مكان ينالون فيه . .

ولكنّ بنى تميم على هذا كانوا مثلاً من الأمثلة النادرة على عجائب الحظوظ فى هذه الدنيا . فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانًا إلى نقمة تشبه القلة والضنك والخوف كما ظهر ذلك فى شأن بنى تميم .

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواهه سببًا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الإجماع بينهم على رئيس واحد . فتشعبوا بطونًا يدين كل بطن منها لرئيس ، بل بيوتًا فى البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا الترات[1] ، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم والغريب الطارئ عليهم من الأعداء والأصدقاء . .

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية ، فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حربًا عليه ، فأجاب رؤساؤهم الدعوة ، وأقرهم النبى على رئاستهم ، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، ووكيع بن مالك على بنى حنظلة ، ومالك بن نويرة على بنى يربوع وهم بيت من بيوت بنى حنظلة الكبار .

وكل أولئك رجال من ذوى الرأى الراجح والقول النافذ والمناقب «الشخصية» . . ويمتاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحد منهم ، وهى اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة ، مع الوسامة والصباحية وأناقة الزى والشارة ، وهى فى جملتها تلك الصفات التى ترشح صاحبها لمآسى البطولة فى قصص الحياة ، من واقع أو خيال .

كانت فيه خيلاء وجفلة ، وكان متلافًا لا يبقى على مال ، وكان فارسًا شاعرًا محدثًا ظريف المدخل على من يعرف ومن لا يعرف ، ومن ذاك أنه كان يقصد الحى من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفدية المصطلح عليها ، فلا يحدث أهل الحى هنيهة حتى يخلبهم بحديثه ويأسرهم بظرفه وحسن سمته ؛ فيردوا إليه أسيره بغير فدية ، ويفترقوا وهم أصفياء .

---

(١) الترات جمع ترة وهى الوتر أو الثأر .

وكان مالك هذا أول من قصدت إليه سجاح المتنبئة عند منحدرها من الجزيرة، فصرفها عنه بلباقته إلى ملاقاة البطون الأخرى من بنى تميم، ولعله زين لها أن تجمعهم إليها عصبة واحدة، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها . . وأنها وشيكة أن تنتقم له منهم إن هى دعتهم إلى الالتفاف بها فلم يجيبوها .

ولم تزل الأنباء - قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها - يتابع بعضها بعضًا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم، إلا ما كان من هزيمة عكرمة فى اليمامة وانتصار بنى حنيفة عليه، وهو انتصار لا يسر بنى تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بنى حنيفة .

فلما أخذ الخليفة فى عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر، فسبق بعضهم إلى المدينة بحصته من الزكاة، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها إليه، وتحير مالك بن نويرة، فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة .

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات فى هباته وملاهيه، ثم ليم فى ذلك فأجاب لائميه بأبيات قال فيها :

وقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر فيما يجىء من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم ... منعنا وقلنا الدين دين محمد

يعنى أن محمدًا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة، وقد مضى محمدٌ فليس لأحد بعده أن يتقاضاه .

وهو على الجملة موقف رجل مسرف «لا يبالى ما يجىء من الغد»، كما قال : وليس بموقف عناد وتحفز لقتال .

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدًا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال . . فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا فى أثر هذا البطاح، فجاءته بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع، فحبسهم ثم أمر بقتلهم، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة مالك ليلى أم تميم، وكانت من أشهر نساء العرب بالجمال، ولاسيما جمال العينين والساقين . . يقال إنه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها .

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب وأصعبه أن تهتدى منه إلى مخرج متفق عليه .

فمن قائل إن السرايا وجدت بنى يربوع يصلون وسمعت الأذان ، ومن قائل : لم نر صلاة ولم نسمع بأذان .

ومن قائل إن الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد أن «دافئوا أسراكم» ، ففهم الحراس أنه يريد القتل ؛ لأنهم من بنى كنانة والمدفأة بلهجتهم كناية عنه .

ومن قائل إن مالكًا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد . . ثم تضطرب الروايات فى نقل حديثهما ، فلا يدرى له نص صحيح . فقيل إن مالكًا صرح بأنه لا يعطى الزكاة وإنما يقيم الصلاة ، فقال خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معًا لاتقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك ، فاتخذ خالد قوله دليلاً على تبرئه من النبى وقال له : أو ما تراه لك صاحبًا ، ثم حمى الجدل بينهما حتى أمر بقتله ، ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذى لا يتماسك لوهيه ، فزعموا أن خالدًا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرًا فأكل منه ، وأن شعر مالك جعلت النار تعمل فيه إلى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر! وهى خرافة تروى ؛ لتدلنا على شىء واحد : وهو وجود المحنقين الراغبين فى التشهير بخالد وتبشيع أعماله وإيغار الصدور عليه .

وقيل إن مالكًا لمح فى عينى خالد الإعجاب بامرأته فصاح به : هذه التى قتلتنى ، فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام .

ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فيزعمون أن هوى خالد لها سابق لحرب الردة ، وفى ذلك يقول أبو نمير السعدى :

قضى خالد بغيًا عليه بعرسه   وكان له فيها هوى قبل ذلك

وقيل إن خالدًا توعد مالكًا بالقتل ، فقال له مالك : أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد : وهذه بعد تلك؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر فى أمره فكره خالد كلامهما ، وعاد مالك يقول له : يا خالد : ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا ، فقال خالد : لا أقالنى الله أن أقلتك ، وتقدم إلى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه . . ويزيدون على ذلك ، أن خالدًا دعا أبا قتادة الأنصارى وعبد الله ابن عمر إلى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها فأبيا وأشارا عليه أن يكتب إلى أبى بكر ، فلم يستمع إليهما .

وغضب أبو قتادة ، فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدًا لواء واحد ، وقفل إلى المدينة غير مستأذن من قائده ، فلقى الخليفة ولقى عمر بن الخطاب ، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف ، وطلب إلى الخليفة أن يعزله وأن يقيده قائلاً : إن سيفه فيه رهق ، فلم يجبه الخليفة وقال له : يا عمر ، تأول فأخطأ . ارفع لسانك عن خالد . فإنى لا أشيم سيفًا سله الله على الكافرين . .

ولكنه ودى[1] مالكًا واستدعى خالدًا إليه ، فلما قدم إلى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبًا وشدة فى طلب القود [2] منه . رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهمًا . فنهض إليه فنزعها وحطمها وصاح به : «قتلت امرءًا مسلمًا ، ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك» . .

فتركه خالد ولقى الخليفة فاعتذر إليه . فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى ثم عفا عنه واستبقى خدمته ، فعاد خالد إلى المسجد وفيه عمر . . فبادره حين رآه مناجزًا : هلم إلى ابن أم شملة ، فعرف عمر أن الخليفة قد عفا عنه ، فلم يكلمه ودخل بيته .

وحسبنا من هذه الأقوال جميعًا أن نقف منها على الثابت الذى لا نزاع فيه . . والثابت الذى لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحًا قاطعًا فى أمر مالك بن نويرة ، وأن مالكًا كان أحق بإرساله إلى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعة البزاخة ، وأن خالدًا تزوج امرأة مالك وتعلّق بها وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة .

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول : إن وقعة البطاح صفحة فى تاريخ خالد كان خيرًا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال ؛ لأنها لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيرًا ولا قليلاً ، وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه أن له عذرًا فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون .

* * *

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد ؛ لأنه الحق الذى لا يعلو على ميزانه ميزان فى ترجيح الرجال والأعمال . .

---

(١) ودى أى دفع الدية .

(٢) القود أى التعويض .

ولأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ . إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير فى الحسنات والعظائم ، وأنه من الفقر فى هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته ، ولم يكن خالد بن الوليد كذلك ، بل كانت له فى ميزات العظمة والعبقرية كفة راجحة ، ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل منهم فى نصيبه كفايته من الفضل والرجحان .

خرج من البطاح إلى اليمامة .

خرج من وقعة لا خطر لها إلى وقعة لها الخطر الأكبر فى حروب الردة وفى حروب الإسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين .

ويرجع هذا الخطر إلى قوة بنى حنيفة أصحاب اليمامة ، ودهاء رئيسهم مسيلمة ابن ثمامة ، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة الماء والثمرات .

هابها أصحاب سجاح ، وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها : إن مسيلمة قد استفحل أمره وعظم . . فلم تهون عليهم خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها : «عليكم باليمامة . دفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، ولا تلحقكم بعدها ملامة» .

وكان مسيلمة هذا رجلاً قصيرًا أخنس الأنف أفطسه شديد الصفرة زرى الهيئة ، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة ، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء ، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء ، فمن خلابته أن النبى عليه السلام أرسل إليه رجلاً من قراء القرآن ؛ ليعلِّم أهل اليمامة أحكام الإسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال ، فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى إليه وأنه سمع النبى عليه السلام يقول إنه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة . . وقد استغوى سجاح – وهى تدَّعِى النبوة – حتى شهدت بنبوته وتزوجته وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذَّهاب ولا يضمن لها التكرار ، وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن ، فقد كان نساؤه يحببنه ويجزعن عليه ، وصاحت إحداهن ساعة أن قتله وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم : «وا أمير الوضاءة . قتله العبد الأسود . . .» .

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء ؛ لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه ، فيخيل إليهم أنه سر من الغيب أو معونة من الجنة والشياطين ، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التى كان يحذقها بعض الكهان فى بلاد العرب والعجم ، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم «النيرنجيات» حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها ، ولم يكن فى طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب . . فقد قيل فى وصفه وهو يتكهن : «إنه إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه» . . . والأغلب الأرجح أن به صرعًا كأولئك الذين يشبهونه فى الخلائق والدعاوى ، ومنهم الذين يعالجون «الاستهواء» من المستهوين أو الوسطاء .

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه ، فتأتى له أن يجمع منهم أربعين ألفًا أو ستين ، وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير ، ولكنه لا يهبط إلى ما دون العشرين ، قياسًا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين .

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوى النبوة ومقاومة الإسلام . . فكان يقاتل ثمامة بن أثال ، ويناوش بنى تميم لما بينهم من الذحول والمنافسات ، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين ، ويعلم أن أشياعه من بيوت بنى تميم قد يخذلونه ، وأن الذين دانوا بالإسلام بين قومه عيون عليه ، وأن الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره . . فتحيل على مهادنة خصومه ، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم ، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح ، ثم تقدم بهم فى عجلة إلى موقع يقال له عقرباء فى طرف بلاده على مقربة من بلاد بنى تميم .

ولم يكن خالد يجهل خطر الرجل الذى سيلقاه ، ولم يكن يخفى عليه أن الحرب فى العراء غير الحرب فى بلاد تكتنفها الجبال ، وتقام فيها الأبنية والأسوار ، فتوجه إلى اليمامة فى أهبة كافية بالقياس إلى أهبة المسلمين لأعدائهم فى صدر الإسلام .

ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذى كان معه فى عقرباء ، ولكنه على التقريب يجاوز ثمانية الآلاف ولا يقل عنها ؛ لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف ، يضاف إليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذى سبقه ولبث فى انتظاره ، ولا

يقل عن ألفين ، ويضاف إليهم الردء الذى أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ؛ ليحمى ساقتهم ، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بنى تميم وبنى حنيفة ، فهم فى جملتهم يجاوزون ثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها ، إن نقصوا ، إلا بقليل .

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير إنما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه . فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز فى عدته نصف جيش اليمامة ، ولكنه كان فى عدة وافية من أفذاذ الرجال الذين يقومون بالألوف . . فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران .

وكانا كفؤين متناظرين فى صدق النية واتقاء العار من الهزيمة . . هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين ، وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون إلى المسلمين : «هذا يوم الغيرة . . اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم» .

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ، ولا شواحذ الغيرة ، ولا صلابة العزم ، ولا توسم الأمل فى النجاح .

ولم يزل خالد يتقدم إلى وجهته على تعبئة كاملة كعادته فى معظم غزواته . . وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته فى كل مرحلة من مراحل الطريق ، ولعله استعظم القوة التى حشدها مسيلمة فى عقر داره فجنح إلى الأخذ بالأحوط وكتب إلى الخليفة فى طلب المدد عسى أن يحتاج إليه بعد الجولة الأولى من جولات القتال ، فأمده الخليفة بجرير بن عبد الله البجلى ، ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل إليه ، فلقيه منصرفًا من اليمامة .

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه فى الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين . . عليهم مجاعة بن مرارة من زعماء بنى حنيفة وأصحاب الرأى والمنزلة فيهم ، وكأنه كان خارجًا لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذهب «لأخذ ثأر له فى بنى تميم وبنى عامر» ، فلما سئلوا عن دينهم قالوا : منا نبى ومنكم نبى ، فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعًا واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته فى قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة ، كما قال بعض الرواة .

ونزل خالد على كثيب فى مواجهة مسيلمة ، ثم التحم الفريقان «وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله» واندفعت فى هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالأغلال . . فهمَّ بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيرًا وهو يقول : نعمت الحرة هذه ، وعليكم بالرجال .

شوهد فى كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى الصدر الأول أن الكرة الأولى غالبًا ما تكون للمشركين ، ولا سيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال ، وهى مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف المعهود ؛ لأن «الدفعة الحيوانية» أبدًا لها الوثبة الأولى مع العدد الكثير وراحة الجسد ، وإنما الثبات للعقيدة التى يلوذ بها الإنسان بعد المراجعة ، وللضمير الذى يثوب إليه المرء بعد الامتحان ، وليس من شأن العقيدة أن تكون - كالدفعة الحيوانية - وثبة عاجلة وهجمة سوارة فاشلة ، وإنما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من أعماقها ، فهى لهذا تنفع صاحبها فى المحنة وبعد تبين الشدة ، وبخاصة حين يحتاج إليها بعد الجولة الأولى .

وهذا الذى حدث فى عقرباء كما حدث فى وقائع شتى .

فبعد الجولة الأولى التى فازت بها «الدفعة الحيوانية» برزت العقيدة إلى الطليعة وجاءت بمعجزاتها ، وهى معجزات لا يتخيل العقل أن نفسًا إنسانية تقدم عليها بغير اعتقاد .

انكشف الأعراب أولاً فى أول صدمة ، وتزلزلت أقدام أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة والمنهزمة على السواء .

فبادر خالد إلى تنظيم جيشه على وضع جديد ، فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بنى أب على راية ، وصاح بهم : أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى .

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر ، فوهبت له الحياة ووهب النصر . . حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق ومسيلمة يروغ منه ، ثم نادى بشعار المسلمين : يا محمداه . . ودعا إلى المبارزة وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له فى مجال ، ولم يبال أن ينظر إلى ما وراءه ؛ لأنه ترك كل شىء فى تلك الساعة إلا أن يتقدم

أمامه ، ولم يزد على أن قال لجيرته أو من نسميهم اليوم أركان حربه : «لا أوتين من خلفى» ومضى إلى تقدم بغير رجوع ، إلا رجوع ظافر مختار .

وظهرت فى مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة ، فحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن ، فلم يزل ثابتًا حتى قتل فى مكانه .

وصاح زيد بن الخطاب : أيها الناس عَضّوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدمًا . ثم أقسم : والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى . فكانت آخر ما فاه به فى ذلك اليوم .

وحمى البراء بن معرور وأخذته العُرَواء التى كانت تأخذه حين تتعالى الوغى ويحتدم القتال ، فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة . .

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضًا وينظر بعضهم إلى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم : يا أصحاب سورة البقرة . . . يا أنصار الله . . كما ناداهم النبى عليه السلام فى يوم حنين . فاستحى كل منادًى منظور المكان منهم فى ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه ، ولم ير منهم إلا قتيل فى موضعه أو زاحف إلى الأمام .

وما هى إلا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين ، وهرول مسيلمة نفسه إلى حديقة مسورة من ورائه . . وقد سميت فى ذلك اليوم بحديقة الموت ؛ لكثرة من قُتل فى طريقها وكثرة من قُتل فيها ، ولاحت من البراء نظرة إلى جانب الباب فإذا هم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم ، فصاح بإخوانه : يا معشر المسلمين ، ألقونى عليهم من فوق سورها ، فاحتملوه فوق الحجف (١) ، ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد ، ولم يزل يعالج باب الحديقة حتى فتحه ، وقد تواثب أفراد من المسلمين إلى جانبه فأعانوه .

وقتل فى هذه الهجمة مسيلمة ، كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أعوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا فى الحيرة وهم فى هزيمة لا يشار فيها برأى ، ولا يصغى فيها إلى مشير ، فشغلوا عن باب الحديقة وأعين المسلمون على اقتحامه من داخلها وخارجها . فحق لتلك الحديقة فى ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ؛

(١) الحجف هى : التروس من جلد بلا خشب .

لأنها اشتملت فى يومها على ألوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعًا فى ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف ، أقلهم فى تقدير المقدرين عشرة آلاف من بنى حنيفة وستمائة من المسلمين ، وأكثرهم فى تقدير المقدرين يرتفعون إلى سبعين ألفًا أو ثمانين ألفًا حنفيين وألفين مسلمين وهم رقم لا يدل على نبأ صحيح ولكنه يدل على هول صحيح سرَى فى الآفاق من أبناء تلك المعركة التى ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء . . ومن جراء مقتلهم فى هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن فى المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يفنى آخرون .

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى ، وعزم على غزو حصونها جميعًا ولم يكن بقى فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ والكبار ، فاقترح عليه مجاعة أن يذهب إليهم ؛ لينزلهم صلحًا عن معاقلهم ، ثم خدعه وأخلص لقومه ؛ لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رءوس الحصون ، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رءوس الناس ، فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد «وقد كلوا من كثرة الحروب» واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبى والغنائم ، ثم نزل من النصف إلى الربع حين أوهمه مجاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه .

فلما اطمأن المعتصمون إلى الحصون من بنى حنيفة فتحوا أبوابها فلم ير فيها إلا امرأة أو صبى أو شيخ فان أو رجل هزيل لا يرجى لقتال .

وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجاعة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التى اجترأ عليه بها علانية وهو فى قبضة يديه .

لكننا فى الحق لا نعجب إذا هو لم يغضب ؛ لأن عمل مجاعة لا مراء عمل نبيل يكبره فى النفوس النبيلة ، ويبعث له فيها الإعجاب الذى يكفكف من شرة كل غضب سريع . فهو عمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة ، وكلتاهما فضيلة يعرفها خالد ، ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء .

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر إليه نظرة شزراء وصرخ به : ويحك . . خدعتنى ، فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر ، وإنما قال : هم قومى .

وما نحسب إلا أن الإعجاب بمجاعة قد حبب إلى خالد أن يصهر إليه ويوثق الصلة بينه وبينه . . زعيم شجاع جميل الرأى حسن التدبير غيور على قومه عليم

كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلم ، فهو خير صهر فى تلك القبيلة التى يفخر «سيف الله» بدخولها على يديه فى الإسلام ، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب ، وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التى يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهواء ، فاختار له واديًا من أوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة أخرى ، وخطب إلى مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها ، وهى خطبة لا تُرفض ولكنها قد تقبل وتؤجل ؛ لأن مجاعة قد علم من «ليلى» مذ كان سجينًا فى خيمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه خبر زواجها بخالد فى ساحة القتال . فأشفق هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوءه وتسوء ابنته وتسوء خالدًا فى جريرته ، فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه ، وقال له : «مهلاً . . إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك» . . ولكنه لم يلبث أن علم إصرار خالد حتى أجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الإباء .

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمرًا باستئصال كل من يحمل السلاح من بنى حنيفة ، فعادت الرسل إلى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج ، فحسب أن الأمرين مقترنان واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع فى نفسه من حسبان ، فكتب إليه أعنف خطاب وجهه إلى قائد من قواده أو والٍ من ولاته ، وسماه «ابن أم خالد . . .» وقال له فى خطابه : إنك لفارغ ، ونعى عليه أنه «ينكح النساء وبفناء بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد» .

وقد كتب خالد إلى الخليفة يعتذر فى أنفة وعزة : «أما بعد ، فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى الدار ، وما تزوجت إلا إلى امرئ لو عمدت إليه من المدينة خاطبًا لم أبل . دع أنى استثرت خطبتى إليه من تحت قدمى ، فإن كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو دنيا أعتبتك ، وأما حسن عزائى على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حيًا أو يرد ميتًا لأبقى حزنى الحى ورد الميت ، ولقد اقتحمت فى طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت ، وأما خدعة مجاعة إياى عن رأيى فإنى لم أخطئ رأى يومى ولم يكن لى علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين خيرًا ، وأورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين» .

وقال فى رسالة أخرى : «إنى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به ، وحتى عجف الكراع ونهك الخف ، ونهك المسلمون بالقتل والجراح» .

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطًا عليه ذلك السخط لولا إصغاؤه «للأعيسر» كما كان يسمى عمر بن الخطاب ، ويخيل إلينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا أن زواجه ببنت مجاعة سبقه ذلك الزواج الذى خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة .

وعلى هذا ، انقضى واجب خالد بن الوليد فى حروب الردة كأحسن ما ينقضى هذا الواجب ، وقام وحده بأوفر سهم فى هذه الحروب ؛ لأنه قمع أخطر الفتن فى الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، فقمع فتنة بنى أسد وحلفائهم ، وخطرها أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة ، وقمع فتنة بنى حنيفة ، وخطرها أنها كانت فتنة القبيلة القُوِّى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة . . وحقق كل ما ندبه له الخليفة ، وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التى نظرا معًا فى تفصيلاتها ، أو من الخطط التى عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها ، ولم يخالف رغبة الخليفة إلا فى موضعين لهما ، كما أسلفنا ، علاقة بمسألة زواج .

أما الأولى – وهى زواج ليلى امرأة مالك – فقد تقدم تلخيصها وجملة الرأى فيه – كما أسلفنا – أنه عمل يحوج خالدًا إلى الاعتذار والتفسير ، وأنه صفحة كان خيرًا له لو طويت من تاريخه ، فما فيها مزيد افتخار ، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار .

وأما الأخرى فلا يسع أحدًا أن يسهو فيها عن عجلة خالد إلى الزواج على غير عادة القوم فى ميادين القتال .

ولكن لا يسع أحدًا كذلك أن يتعدى هذا إلى مظنة تمس نية الرجل أو تجعل صلحه لبنى حنيفة متصلاً برغبته فى الزواج ببنت مجاعة زعيم الحنفيين فى صلح اليمامة . . ذلك بعيد ، جد بعيد . .

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه ، وكان فى وسعه أن يقتل أباها ؛ نقمة من خداعه إياه ، ومرضاة للخليفة الذى أمره باستئصال من يحمل السلاح فى القبيلة ، فهو يقتله ولا معتبة عليه .

ولم يصالح خالد بنى حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه ، بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع – هو مسيلمة بن عمير – أبى أن يذعن لشروط مجاعة ومضى يهتف فى قومه : «يا بنى حنيفة ، قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شىء ، فإن الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء» .

فلما عارضه مجاعة وذهب برأى الأكثرين من قومه تمادى مسيلمة بن عمير فى لجاج الخصومة وانسل إلى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التى لا تؤمن عقابيلها فى معسكره ومعسكر بنى حنيفة ، فتنبه خالد إليه وسأل : من هذا المقبل؟ . . فعرفوه به فقال : أخرجوه عنى ، فلما أخرجوه وجدوه يخفى السيف فى ثيابه ، فلعنوه وأوثقوه فى الحصن وأخذوا عليه عهدًا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهى بيعة قومه على الإسلام ، ولكنه غدر بعهده وأفلت بالليل إلى عسكر خالد مصراً على قتله ، فلما أدركوه دون بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم .

ومع هذا ، بقيت بلدة «القرية» ووادى العرض فى اليمامة لم يشملها الصلح الذى شمل العسكر فى عقرباء . فلم تكن مطاولة القوم خيرًا من المصالحة فى حالة كتلك الحال ، ولم يكن فى طاقة المسلمين أن ينهضوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء ، ولم يكن إرجاء التسليم مأمون المغبة إذا استثيرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعاند فى الخصومة ذلك العناد ، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع إلى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبى النساء «غير حظيات» وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول .

فدواعى خالد إلى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ ، وإن الداعى الذى لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة ، وأيسر شىء لديه أن يسبيها بعد قتل ذويها ، ثم يكون ذلك أدنى إلى رضا الخليفة وتحقيق ما أمر به ، قبل أن يطلع على الموقف فى اليمامة من جملة نواحيه .

وبعد ، فليحسب زواج خالد كله فى أى سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون ، ففى سجل المفاخر الإسلامية شىء يحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف . . فتلك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبى عليه السلام أنه سيف من سيوف الله ، كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم «الأعاجم» التى تحيط بالبلاد العربية .

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الإسلام فى أرضه ، وهو أوفى نصيب . . وسنرى نصيبه من مراس الخطر الآخر وما هو بأكبر الخطرين ، ولكن نصيب خالد فى مراسه كان أوفى النصيبين .

٧ الفُتــوحُ

فى سبع سنين قصار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم . .

فـتـقـوضت فى الشـرق دولة الأكـاسـرة ، وتداعت فى الشـمـال والغـرب دولة القياصرة ، وزال سلطانها من الشام وفلسطين ومصر وإفريقية الشمالية ، وشغلت بنفسها زمانًا عن الفاتحين وما فتحوه .

عجيبة من أعظم عجائب التاريخ . .

لا يبـرح المؤرخـون حـتـى أيامنا هذه يأتون فى تعليلهـا كل يوم بعلل جـديدة ، ويفيضون فى شرح السوابق واللواحق على النحو الذى يفسر العجب بالمألوف ، ويرد الدهشة الجامحة إلى قرار البحث والتدليل .

وهو جـهـد لا نعرض لـه فى هذا الكتـاب ، ولا يلزمنا هنا أن نـستـقـصيه ونحاول البت فيه .

إنما يعنينا منه شىء واحد هو تقدير عمل خالد ، وتقدير الكفاية التى تضطلع بذلك العمل ، وليس تقـدير ذلك بعسـيـر ولو بقى التـاريخ مـتـشـعـب اللسـان فى استقصاء علل الهزائم التى نزلت بالفرس والروم .

فالأسـبـاب التى قضت على الفـرس والروم بالهـزيمة - كـائنة مـا كـانت - ليـست هى الأسـبـاب التى قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ؛ لأن اسـتـحـقـاق أناس للزوال لا ينشئ لغيرهم حق الظهور والبقاء .

كـذلك لـم يكن انتـصـار العـرب على الفـرس والروم لأنهم عـرب وكـفـى ، ولـم تكن المسألة فى لبابها كفاحًا بين الأجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب .

فقد كـان فى أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون إليهما نظرة الإكـبـار والمهـابة ، وكـان القـادرون منهم على القـتـال أوفر من مـقـاتلة المسلمين عددًا وأمضى سلاحًا وأقرب إلى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين إليها من جنوب الجزيرة العربية .

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر فى العدد والسلاح وأغنى بالخيل والإبل والأموال .

فهى نصرة عقيدة لا مراء . .

وينبغى أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها إلى جانب واحد . .

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو فى وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة العقيدة التى تخلفها وتنتصر عليها فى ساحة النزاع .

إذ كان أدعى الدواعى لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها .

فإذا قيل إن العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعى النظم التى اصطدمت بها فليس هذا تعليلاً وكفى ، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور ، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية ، وأنها علاج عالمى مطلوب جاء فى الأوان .

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول . .

أفكل مناضل متذرع بالعقيدة صالح فى تلك الأونة للانتصار؟

ينبغى أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنيًا عن كل تعليل . .

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالاً أولِى خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها .

وقد أفلح أناس وأخفق آخرون .

فانهزم عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد فى اليمامة . .

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه فى وقت واحد ، فسار خالد من نصر إلى نصر ومن توفيق إلى توفيق . . ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة فى دومة الجندل . .

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد إلى الشام ، فغرر به الروم حتى استدرجوه إلى مرج الصفر ، فأوغل وراءهم ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التى أرسلها إليه تباعًا بقيادة عكرمة بن أبى جهل والوليد بن عقبة وذى الكلاع الحميرى ،

فأحدقت به جحافل الروم وأوشكت أن تلتف به من ورائه ، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده فى أوقاتها لقضوا عليه . .

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها فى الغلب وحاجة العالم إليها فى تلك الآونة . .

ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضل رجالها وحماتها ، وكفاية سواسها وقادتها . .

فهى عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون ، وكان خالد بن الوليد فى طليعة هؤلاء الحماة .

* * *

سبقه اسمه إلى أطراف الدولتين ، فحارب أعداءه بهيبته قبل أن يحاربهم بسيفه ، وكانت هذه أول مزية لاختياره ، وأول فضل يحسب له فى ميزانه ويضاف إلى قيادته ، ويعمل عمله فى نفوس أعدائه كما يعمل عمله فى نفوس أتباعه . .

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره إليه : «أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائرًا منه ، ولا أصمد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدًا - قلوا أو كثروا - إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم . .» .

وكان الرجل من العرب يعيش فى الشام ويهجر موطنه الأول ولكنه يسمع باسم خالد ، ويتلقى أنباءه من وراء المهامه والدروب ، فما هو إلا أن ينضوى إليه حتى يوقن بيمن طائره ويسرع إلى طاعة أمره ، عليمًا بأنه لا يأمر الأمر إلا وهو قادر على إنجازه ، كما قال الشاعر الفارسى عمرو بن العمرد :

إذا قال سيف الله كروا عليهم ... كررت بقلب رابط الجأش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة ، إن كانت القصة من توليد الخيال :

قيل إن قائدًا من قادة الروم اسمه چورچ برز له فى أكبر وقائع الشام وسأله : أحق أن الله أنزل على نبيكم سيفًا من السماء ، فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟

قال خالد : لا .

قال : فبم سميت سيف الله؟

قال : تابعناه . . فقال : «أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين» ، ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

وكل هذا شبيه بأن يكون . .

فإن لم يكن نبأ خالد قد وصل إلى كل عدو من أعدائه ، فالذى لا ريب فيه أن أتباعه كانوا على علم بنبئه ، فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه ، وكانوا يطمئنون إليه فيعملون معه عمل المطمئن إلى نجاح سعيه ، وهذا هو فضل القيادة الصالحة فى نفوس الأتباع .

* * *

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبى عليه السلام بسنة واحدة ، وبعد حروب طالت فى الجزيرة العربية عدة سنين . .

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب وكانت البيئة لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم فى تلك الأعوام : فتن وفتن . . ونبى مات أو قيصر شاخ . . فهؤلاء وهؤلاء فى العلة سواء . .

لكن حركة العرب حركة إنشاء ونماء . .

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض . .

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال . .

وكذلك جسم الهرم الذاهب ، ولكن شتان اضطراب واضطراب . .

* * *

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد إلى تخومها من ناحية السواد .

وكانت علل مثلها ، وإن كانت أخف منها - قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية ، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبلقاء . . وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ فى الدولتين :

يقول شراح الحضارات إن الحضارة تبتدئ بمعنى روحى قليل المظهر ، ثم تنتهى إلى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية . .

وهذه هى الحالة التى كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامهما بالدعوة الإسلامية فى نهضتها الأولى .

ففى بلاد الفرس ، خَفَتَ صوت الدين ومضى على ظهور «زرادشت» مصلحهم الدينى الكبير زهاء أربعة عشر قرنًا ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءًا على سوء .

وخلف فى بيت الملك أمراء ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء فشغلوا بالنزاع بينهم وأسقطوا هيبتهم فى بلادهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة فى فتن وبيلة وخيمة وترف أوبل وأوخم ، وما برحوا فى طغيانهم وتهافتهم حتى ولى الملك أردشير فرأب صدعه وأوشك أن يعيده إلى سابق مجده وتركه فى القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس إلى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء .

ثم نكس النكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علوًا وسفلاً قبيل ظهور الدعوة الإسلامية ، وكان الملك المعاصر للنبى عليه السلام كسرى أبرويز ، فثار به ابنه شيرويه فقتله ونكل بذوى قرباه ، وأعقب طفلاً صغيرًا فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهر يزار ، فنفس عليه القواد والعظماء منزلته المغصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى أبرويز ، فلم تتم فى الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى من بنى عمومتها الأبعدين ، ثم قتل وخلفته بنت أخرى لكسرى أبرويز فقتلت ، وقتل من بعدها ، إلى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهريار والدولة تترنح من فرط الإعياء .

ومنيت فى أيامها الأخيرة بضربة قوية فى حروبها الخارجية : وهى غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشام منها ورد حدودها إلى دجلة والفرات بعد أن طغت على حدود آسيا الصغرى ، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه الضربة فى القوة والضخامة ، ولكنها أشد منها أثرًا فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الإسلامية . وتلك هى ضربة الهزيمة بـ«ذى قار» التى تقدم وصفها فى أول هذا الكتاب . . فإن هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة وهيْبة ، ولا سيما العرب المقيمين بجوار ذى قار وأرباض السواد ، ومنهم جند خالد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس فى العراق .

وساءت من جراء ذلك كله شئون الأمة فى الديار الفارسية ، فتهالك العلية على المظاهر وانغمسوا فى الترف واستكثروا من النفائس والأموال ، وشغلوا عن سواد الأمة ؛ فشاع بينهم الفقر والضنك والتذمر وبُغض الحكام ، ولم يعلموا فيم هم

مسوقون وعلى أى شىء يقاتلون ويتفانون ، وهى حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والجدران .

ومن أعجب العجب أن يفطن رجل كالمغيرة بن شعبة لدلالة هذه الحال ، وهى معدودة فى عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التى لا يصل إليها الباحث إلا بعد مقارنة واطلاع واسع مستفيض ، ولكنه العجب الذى يفسر لنا ما هو أعجب منه ، وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرجال ذوى الحنكة والنظر البعيد ، وأنهم قد ظفروا ؛ لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين ، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات .

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور فى التواريخ والأساطير فجلس معه على سريره ، فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوى «المغرور» واجتذبوه من مكانه على السرير فى عنف شديد ، فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد على أن قال : لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى أسفه منكم ، إنَّا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضًا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى - أى نتساوى - فكان أحسن من الذى صنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، إن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد . وإنى لم آتكم ولكن دعوتمونى . . اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول . .

كلمات من ذهب . .

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال فى جوابه : «واليوم علمنا أنكم غالبون ، وأن أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذى قوامه من هذه السيرة وهذه العقول» . .

على أن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الإقفار فى أظلم ظلمات الجهالة والإدبار ، فقد وزن «يزدجرد» شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح ؛ حين قال لرستم : «إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل ، فتبيت فى سفحه فى أوكارها ، فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها ، فإن شذ منها شىء اختطفه ، فلو نهضت نهضة واحدة ردته ، وأشد شىء يكون فى ذلك أن تنجو كلها إلا واحدًا ، وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت ، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم» .

وصف صادق من جملة أطرافه . .

وعلامة من علامات الانحلال ألاّ ينفع الوصف الصادق ولا يهدى العارفين به إلى رأى متفق عليه ، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه فى العلاج إذا شارف الجسم الفناء ؛ ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب ، فافترقا مختلفين .

وكما بقيت فى أهل فارس يومذاك مسكة من حلول بقيت لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربية ، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة . .

وهذه المسكة شرف للقادر ولكنها بلاء على العاجز المتخاذل ، كأنها الوثبة التى تعجل بالهلاك إن وثبها المريض الهزيل ، وإنها فى الأقوياء لمعوان على المجد والطموح .

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون أنهم مقدمون على مباراة فى حلقة صراع ، ينظرون عدوهم حتى يصل إليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه فى أمان .

ففى وقعة الجسر أقبل بهمن جاذويه ومعه راية الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ، وبين يديه جيش يربو على جيش المسلمين مرات ، فأرسل إلى أبى عبيد قائد المسلمين يقول له : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تخلوا بيننا وبينه ، فتعجل أبو عبيد وعبر النهر على جسر نصبوه ، والفرس ينتظرون .

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال ، وحقيقته أنه صراع حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبة سباق أو حلقة رهان بين لاعبين فى ملهاة .

* * *

أما دولة الرومان الشرقية ، فقد كانت فى حال لا تفضل حال جارتها وعدوتها فى محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية .

ضرب المثل بالجدل البيزنطى فى التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية فى الدولة الرومانية الشرقية ، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة[1] والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب إلى الإسلام منهم إلى المسيحية . .

---

(١) الهرطقة : هى الإلحاد فى حق الله .

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب ؛ فضعف الولاء له فى نفوس العلية وقواد الجيوش ، وقد استقر الأمر زمنًا للقيصر هرقل الذى حضر عهد النبى عليه السلام ولكنه شقى بالفتن فى أخريات عهده وركبته الوساوس فى شيخوخته ، ولا سيما بعد بنائه ببنت أخته ، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء .

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين ؛ لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة ، فأثخنوا فيهم قتلاً وتشريدًا حتى قيل إنهم كانوا يفتكون فى المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال .

وعاشت فى ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذاع وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب ، فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة فى الحيرة . . ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة أخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين ، وهيأ نفوس العرب لقبول دعوة جديدة ولا سيما الدعوة التى تأتيهم من أبناء جنسهم فى الجزيرة العربية وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم ، واتفق فى تلك الفترة انقطاع الهبات التى كان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها .

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Végétius فى علم الحرب أن نظام الجيش الرومانى فى الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين ، ففى هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذى يعدونه إمام أساتذة الحرب بين الغربيين : إن «اللجيون» قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفًا على الكفاية والخدمة الطويلة ، وإن عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة فى الفرق المتطوعة ؛ لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعًا بوطأة نظامه .

وقد أتيحت للرعية فى الشام والبلقاء فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التى دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية . فقد كان رجال الجيش الرومانى يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرماتها ويسكرون ويعربدون فلا يأمنهم أحد مطموع فى ماله

أو غيـر مطمـوع منه فى شىء على الإطلاق ، وإنما هى العـربدة والضـراوة والاستخفاف ، ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم ، ويقيمون فى المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية إلى أهلها ؛ لأنهم إنما أخذوها لحمايتهم وحمايتها ، فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة إلى التراخى فى الدفاع عن الحكم القديم وتمنى الغلبة للحكم الجديد ، وقد تتجاوز ذلك إلى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء .

❊ ❊ ❊

بل ربما تجاوزت كل هذا إلى إزعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم . . فمما يروى فى هذا المعنى وهو كثير أن أخا القيصر وقائده سأل رجلاً من قضاعة عن شأن المسلمين بعدما أقام بينهم أيامًا ، فقال له : «هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه إقامةً للحد ، فقال القائد : لئن كنت صادقًا لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها» .

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطأوا فلم يضربوا ضربتهم فى موضعها فيتسع لهم الوقت لإصلاح الخطأ والرجوع إلى الخليفة لطلب النجدة والمشورة ؛ لأن أعداءهم مشغولون أبدًا بنزاع أو فتنة أو ريبة . أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لإصلاح خطأ يخطئونه وكثيرًا ما كانوا يخطئون ، فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التى تدعو إلى النصر ، وعند الآخر كل حقائق الأسباب التى تدعو إليه .

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم ، وسيف الله بوادى الوبر فى اليمامة لم يطل استقراره فى غمده بعد وقعة عقرباء .

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادًا للوقعة الأولى بذى قار ، أو استئنافًا لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة فى تواريخ النزاع بين الأمم ، وهى نيف وعشرون سنة ، فالقبائل التى ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التى انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية فى ذلك الزمان ، وكانت تعيش كلها فى ظل تلك الدولة من أيام المناذرة إلى زوال ملكهم بعد وقعة ذى قار .

والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والإغارة على دهاقينهم فى تلك الأصقاع كانا من بنى بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر فى وقعة ذى قار، وما برح العداء بينهم وبين الفرس والقبائل التى تواليهم على أشد ما يكون : وهما المثنى بن حارثة الشيبانى وسويد بن قطبة العجلى، وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم فى أطراف العراق، وقد صحب المثنى النهر فى غاراته حتى بلغ القطيف وهجر ولم يقف له أحد فى طريقه، فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم فى اليمن لدخولهم فى الإسلام قضيا على تردد الخليفة فى أمر البعثة الفارسية، فصحت عزيمته وعزيمة أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات .

* * *

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمرًا إلا أحكم تدبيره مرحلة مرحلة من طريقه إلى منتهاه . .

وهكذا كان شأنه فى البعثة الفارسية : فإنه ندب لها قائدين هما خالد بن الوليد، وعياض بن غنم، وأمر خالدًا أن يتجه إلى الأبلة ثغر الهند كما سماها، وأمر عياضًا أن يتجه إلى المصيخ بشمال العراق، فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معًا ووجبت طاعته على زميله، وقال لهما : «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس أمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءًا للمسلمين ولصاحبه وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم» .

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى فى وقت واحد . . ففيها ذكاء المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت جهود الفرس فى الدفاع عن بلادهم، وفيها تدبير النجاة سلفًا لمن يحتاج إليها من الجيشين، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ فى الطريق للجيشين معًا ؛ لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين إذا سارا فى طريق واحد .

وكان الصديق وإخوانه يعلمون أن المسألة فى هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة . .

فحرص لهذا على أن يجنب الجيوش الإسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم، وأوصى القائدين بألا يقبلا أحدًا منهم، وألا يكرها أحدًا من غير المرتدين على المسير فى جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضا منه ورغبة، ولما نظر خالد إلى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب إلى الخليفة يستمده، فأمده بفارس واحد

هو القعقاع بن عمرو التميمى . . فعجب أصحابه وقالوا له : أتمده برجل واحد؟ . . قال : نعم؟ لا يهزم جيش فيهم مثل هذا؟

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف وأى كفاية ، فإن ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحدب . فبلغ جيش خالد يوم شارف ميدان القتال قرابة عشرة آلاف عدا جيش المثنى بن حارثة وهو يبلغ ثمانية آلاف ، ولم يتقدم المسلمون خطوة فى ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها أنقذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من بدايتها ، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التى تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين .

ففى الوقعة الأولى ، دعا القائد الفارسى - هرمز - خالدًا للمبارزة قبل التحام الجيشين ، وأضمر نية الغدر به حين يخرج منفردًا بين الصفين ، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضّون عليه وهو مشغول بمبارزته فيراع الجيش العربى بمقتل قائده كما سبق إلى وهمه ، ويطبق الجيش الفارسى بعدده الكبير على الجيش العربى بعدده القليل ، فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين .

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذى دبره هرمز لولا أنه أخطأ الحساب فى اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد فى مبارزته ، فظن أن الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد ، ولكنه صرع فى جولة واحدة وفوجئ أصحابه بهذه السرعة ، فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالإجهاز على قائدهم ، وإذا بالقعقاع أسرع إليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب فى قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة ، فكانت وقعة اليوم وقعة رجلين فى جولة واحدة ، تلتها الجولات اللاحقات التى ترسمت خطاها وسارت على هداها .

سار خالد إلى العراق فى أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية ، وأتم فى سنة واحدة مما أعيى الرومان أن يتموه فى أجيال .

وقد تكتب فى شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ، ولكننا لا نتوسع فى ذلك الشرح هنا ؛ لأن أعمال خالد تعنينا فى هذا الكتاب لمقصد واحد ، وهو الرجوع بها إلى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه .

وفى هذا حسبنا أن نقول على الإجمال قبل الإشارة إلى وقعاته إنه لقى الفرس وأولياءهم فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطئ ولم يخفق فى واحدة منها ، وأن قوادًا من المسلمين أخطأوا فى حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبى عبيد وخالد بن سعيد ، ولكنَّ خالدًا لم يخطئ قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أُهبة ، وكان يسير بجيشه أبدًا على تعبئة كاملة ؛ ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئًا أو غير مفاجئ ، وكان أبدًا كما وصفه عمرو بن العاص : «فى أناة القطاة ووثبة الأسد» فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة ، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه فى بعض الساحات لينتقل به إلى المكان الذى هو أصلح لحركاته وأعون له عليه ، ومن علمه بفنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفًا وكأنه كان يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء . فإذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف إلى مكان يغنون فيه ، فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو على الحاجة الضرورية . . فإن طرأ فى خلال مسيره ما ليس فى الحسبان ، فمعوله فى هذه الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق وهو ينقض على فريسته ، فلا تشعر الفرقة التى أشخصها إلى مكانها بالحاجة إليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها .

فهى شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم فى وقت لزومه ، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط فى ساحات فارس ولا فى ساحات الشام مع اختلاف الميادين واختلاف الأحوال واختلاف الأعداء .

وقد كانت تعبئة خالد فى المسير تشبه التعبئة التى جرى عليها العرف فى أيامه ، وهى قسمة الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه ورِدء يلحق به ؛ ليحمى ظهره أو يلبث فى موضع من المواضع كمينًا ينزل إلى الساحة على غير انتظار ؛ لتقوى به سواعد أصحابه وتنخذل به عزائم أعدائه . . ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة ، فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليه ، ويتراجع أمامه أو يمعن فى الهجوم على كبة جمعه ، ويحصره أو يخلى له سبيل الهرب ، حسبما تدور به المعركة فى أثنائها أو توحى به طوالعها قبل ابتدائها .

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من

طرائق مختلفة ، فقدم المثنى على رأس فرقة ، ثم ألحق به عدى بن حاتم صاحبه فى حرب بنى أسد ، ثم لحق بهم على رأس جيشه وواعدهم موضعًا إلى الجنوب الغربى من البصرة الآن ، ولعله توخى تسهيل السقى والمرعى بهذا التقسيم ، ثم اختيار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب .

وكتب إلى هرمز قائد الفرس يخيره بين الإسلام والجزية أو الحرب ويقول له فى ختام كتابه الوجيز : «جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» ثم عدل إلى كاظمة بعد أن كان موعده الأول «الحفير» ؛ لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه .

وهناك التقى بجيوش الفرس- وعلى رأسهم هرمز - فوقعت بينهم الوقعة التى سبقت الإشارة إليها وتعرف باسم ذات السلاسل ؛ لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات ليثبتوا فى القتال ولا يتأتى لهم الفرار إن أرادوه ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة إلى النية القوية .

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ؛ ليأخذه متفرقًا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون فى «المدائن» عاصمة ملكهم فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشًا عظيمًا بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت أردشير . فأدرك فلول هرمز فى «المذار» وضمهم إليه ، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة إليه فكتب إلى خالد يستأمره ويستمده ، فكان خالد هو الجواب . .

ووصل خالد إلى المذار وهو كامل التعبئة ، فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل بداية القتال ، فنهض إليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان وأراد معقل أن يحمى خالدًا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه إلى قتل قارن ، وبرز عدى ابن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين ، فظفروا بهم جميعًا ثم اشتبك الفريقان فى ملحمة حاربوا فيها ، كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة ، وبلغ بغضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا ، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذلك ولم يكد يفلت من الموت أحد .

* * *

ورانت الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس ، فخيل إليهم أن فى هؤلاء العرب سرًا لا يدركونه ، وأحبوا أن يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها ، فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين ، واشترك هؤلاء فى كثير من الوقائع التى دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار ، وضايقوا المسلمين غير قليل فى الوقعتين التاليتين بالولجة وأليس .

وكان خالد كعادته فى الحيطة والمبادرة ، فاستبقى طائفة من جيشه فى البلاد التى فتحها حماية لظهره واستعدادًا لمن يجترئ عليها بعد مسيره ، وتقدم إلى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعًا ، ثم فصل طائفتين من الجيش فى أثناء الطريق ؛ ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتفا فى ساعة الحرج بالجيش الفارسى من ورائه . فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان ، وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى ، ثم ظهر أحد الكمينين وظهر الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول ، فتولاهم إعياء اليأس بعد إعياء المصابرة والمجاهدة ، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد فى مهربهم . . فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب .

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة «أليس» وهى أعجب الوقائع فى حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب ، ولعلها هى الوقعة الحاسمة فى النزاع بين المجوسية والإسلام .

راع الشاهنشاه تلاحق الهزائم على جيوشه ، وغاظ العرب الموالين له أن يؤخذوا فى حماهم ، وأنفوا أن يهانوا ولا يراهم الناس كفاء لتلك القبائل الواغلة عليهم ، فتلاقوا فى الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعًا وهى «أليس» ، وانتظروا هناك جحافل من الفرس وعدوهم أن تربى فى العدد والعدة على كل جيش نزلوا به إلى الميدان فى المعارك الماضية .

وهنا تتراءى فى الموقف أصبع المقادير . .

فإن «بهمن جاذويه» قائد الفرس الذى أمره الشاهنشاه بالمسير إلى «أليس» أناب عنه قائدًا آخر يدعى جابان ، وشخَص هو إلى المدائن ليلقى مولاه ويقلب معه الأمر

على وجوهه فى مسائل شتى لا تغنى فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة ، وليأتى من المدائن بمدد آخر يضاف إلى جيشه الأول وإلى جموع القبائل العربية عند الفرات ، وقال لجابان وهو يودعه : «كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك ، إلا أن يعجلوك» .

وبلغ المدائن فإذا مولاه مريض يجود بنفسه ، وليس نظام الوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح والاستقرار بحيث يطمأن إليه إذا مات الملك والجيش بعيد والمتربصون كثير والشيع فى البلاد أكثر من المتربصين . .

فبقى «بهمن» فى المدائن ، ووصل جابان إلى «أليس» قبل أن يصل إليها خالد فألقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام ، ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله ، فلبثوا على طعامهم ؛ لأنهم أمروا من جهة ألا يعجلوا إلى القتال حتى يوافيهم قائدهم الكبير ، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا أن خالدًا ليس بالذى يلقى أثقاله وهو على تعبئة كاملة مستعد للنزال فى كل لحظة ؛ ولأنهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال أبدًا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر[1] أو ساحات المباراة فى «الألعاب الرياضية» : إنما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين . .

ولكنَّ خالدًا ضرب ضربته الأولى فى الجموع العربية ، فقتل قائدها وأثخن القتل فى صفوفها ، وثار الفرس إلى السلاح مكرهين ؛ لئلا يمهلوا خالدًا حتى يفرغ من الجموع العربية ويتحول إليهم بين لحظة وأخرى .

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها النجدة ، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدركهم قائدهم الكبير ، وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم ، فاشتد الأمر بخالد وثاب إلى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا إن منحه أكتاف أعدائه ، «فلا يستبقى منهم أحدًا يقدر عليه حتى يجرى نهرهم بدمائهم» . . وفى هذا النذر بقية من البدوية المخزومية لا تخفى على اللبيب .

وطال صبر الفرس فنفد . .

وتساقط رءوس العرب الموالين لهم فجزعوا . . .

---

(١) الصوالج جمع صولجان ، والأكر جمع كرة .

ولاحت لخالد لوائح النصر الذى سأله الله ، فلم ينس نذره ونادى فى المسلمين : «الأسر . . . الأسر . . . لا تقتلوا إلا من امتنع» ؛ لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء ، فليجر إذن بالدماء .

وأمر بضرب أعناق القوم فى النهر وقد حبس ماءه ، فلم يجر بالدماء! لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الأرض ، كما قال له أصحابه . . فأطلق الماء فسال بالدم أحمر قانيًا ثلاثة أيام .

* * *

وحمادى ما يقال فى الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة فى تاريخه صدر الإسلام أنها كانت شرعة الحرب فى تلك الأيام ، وأنه كان يدين بها أناسًا صنعوا بالملل الأخرى مثل ما صنع بهم فى هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط مثل هذه المعاملة فى حروبهم مع العرب والدولة الرومانية ، وأن خالدًا حسب أن هذه الذبائح قربان إلى الله . . ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب ، وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك فى صدر رجل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد ، وأكبر الظن عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجلاً ممن طالت صحبتهم للنبى عليه السلام كأبى عبيدة أو سعد بن أبى وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل إلى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وجد الجد فى معركة «أليس» . . فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وظفر المسلمون بألوف الأسرى فى معارك العراق والشام ومصر ، فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى فى القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين فى جواز قتل الأسرى من غير مشركى العرب ، فلم يجزه من أجازه منهم إلا لحسم مادة الفساد ، إن خيف ألا تحسم بغير هذه الذريعة ، وقد كانت مادة الفساد فى أعقاب الدولة الساسانية خليقة - ولا نكران - بضربة من أمثال هذه الضربات . . فقد أعيت فيها الحيلة من دعوة وإقناع ومصابرة ، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى فى تلك المعركة الشعواء ، وهى فى غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الأقدار ، وتلك هى المعارك التى يراد فيها الغالب والمغلوب على الأمر ، ولا يريدان فيه .

وقديمًا علمنا من طوارق الحرب والسلم أن الشر المحض والخير المحض فى هذه

الدنيا عزيزان أو مستحيلان ، فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف فى حروب صدر الإسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لابد له من ختام ، فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سلطان الطغاة فى بلاد الفرس بل فى بلاد الروم ، وكان من جرائها أن الأمصار التى كانت تفزع من حصار خالد لها كانت تلقى بأنفسها فى أحضان غيره من قادة المسلمين ، كما أسرع أهل دمشق إلى ابن الجراح يلتمسون مصالحته ؛ مخافة الفتح عنوة على يد ابن الوليد .

* * *

كانت هذه الوقائع تتوالى يومًا بعد يوم وتتوالى معها البُرُد[1] إلى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتال ، فلا يفرغ الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد . . وسبقت ضربات خالد كل آمال الآملين فى سرعة الظفر بدولة الأكاسرة ، فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء المظفر ليزفوا بشراها إلى الجزيرة العربية : «يا معشر قريش . . عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله[2] . . أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد؟» .

ثم سلمت الحيرة - بلد النعمان وموئل نابغة بنى ذبيان - فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح فى بلد من البلدان ؛ لأنها كانت فى عالم الشعر والبلاغة حديثًا على كل لسان .

إلا أن الخليفة الذى عرفناه رجلاً حصيف الجرأة ، جرىء الحصافة ، لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين . . وأدركه الحذر فى هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية ، فجنح إلى الأناة والتريث وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق ، وحجة الخليفة فى ذلك أظهر من أن تخفى . فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار ، ثم إن السواد نفسه إقليم حديث العهد بالإسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطوح بعده إلى حمى الدولة الفارسية فى عواصمها من وراء النهرين ، وقد نمى إليه ولاشك أن فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا فى الصحراء إلى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون ، وفى الشام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض

(١) البُرُد : بضمتين جمع البريد . (٢) الخراذيل : جمع خرذولة وهى القطعة الكبيرة من اللحم .

عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتتمهد مواطئ الفتوح ، فإن لم يخرج عياض بن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكًا زمامها وزمام ما حولها ، فكل خطر هناك محتمل ، وكل عجلة قد تجر إلى وبال .

ولكن الفرس الكريم الذى يحبس فى الحلبة يعانى من أمان الحبس ثقلة لا يعانيها من تعجل العواقب ومكافحة الأخطار . فحز فى طبع خالد جذب العنان وأقام فى انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه سنة نساء ، ولو كتب لرجل غيره أن يظفر فى هذه السنة المستريحة بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه سجل عمر كامل ، لأنه خاض ثمانى وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى ، وله فى كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور .

وقد عرضت لخالد فى هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل فى الحساب أو تأتى من هنا وثَمَّ على غير حسبان . فتصرف فيها جميعًا تصرف الرجل الذى خلق للتقلب فى أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب فى الماء ، فلا تفجؤه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعيبه .

البدوى لاعهد له بسفينة غير سفينة الصحراء - وهى الجمل - ولكنَّ خالدًا غنم السفن الفارسية بعد وقعة «أليس» فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفى مطاياه مشقة السير ، فلم تنقله السفن إلا قليلاً حتى جف الماء ولصقت بالقاع ؛ لأن الفرس تسامعوا بمسيره فى النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه ، ولو بدوى غير هذا البدوى فوجئ بهذه الحيلة الحضرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع فى «حيص بيص» وترك السفن فى قاعها ورجع إلى مطاياه . . ولكنه أبى إلا أن يبلغ بالسفن إلى حيث شاء ، فانبعث فى نفر من أصحابه كالبزاة إلى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك فى حراستها وفى انتظار السفن التى ارتفعت براكبيها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير . .

وحفروا له فى الأنبار خندقًا ، ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون إليه من أعلاه ، كأنهم يهزأون به ويستعجزونه أن يعبر الخندق وأن يفلح فى علاج الحصن إذا وصل إليه ، فلم يلبث أمام الخندق كثيرًا ولا قليلاً بل أمر لتوه بنحر الإبل العجاف وألقى بها فى الخندق فسدته ودعا جيشه إلى العبور عليها ، فأصبح من فى الحصن سجناء فى يديه ، وتوسلوا إليه أن يرسلهم فى سبيلهم مجردين من

السلاح والمتاع ، وهم يحمدون الله على النجاة من يوم كيوم «أليس» ، فأجابهم إلى ما طلبوه .

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له فى عين التمر حشودًا من تغلب وإياد وأصحاب المتنبئة سجاح ، ويوهم الفرس بأنه ند للعرب ؛ لأنه أخبر بهم من غيرهم ، فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه على تعبئة كاملة ، وبصر بـ«عقة» حين دنا من الموقع فقال لصحبه : اكفونا ما معه فإنى حامل عليه بنفسى . . ثم احتضنه وحمله أسيرًا وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الأسلوب العجيب فى كل قتال . وقد كان خالد يعمد إليه كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم ، فيصيب ما أراد .

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه فى كل معركة بما تقتضيه وتوحيه إليه . .

فكان إذا لقى العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروبة : «ويْحكُم ، أأنتم عرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم ، فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟» .

وكان يعين الحمية الدينية فى جيوشه بما يغرى النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة ، فأباح الأسلاب من سلبها بالغا ما بلغ قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة وقعت فى يديه . وقال لهم يومًا بعد وقعة المذار : «ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه» .

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب ، فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجًا للعهود من قبيله ، وكان يصالح المستسلمين صلح من يعنى كل حرف يخطه بيمينه ، فلا يزيد ولا ينقص . . قال فى عهد أهل الحيرة : «هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد . . نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسًا عن الدنيا تاركًا لها . . وعلى المنعة ، وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم . وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة . . وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة هجرية» ، وعلى قدر

سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت رعايته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين من زراع تلك البلاد . . فللمرة الأولى فى التاريخ من قبل بابل ونينوى ، رأى فلاحو السواد حاكمًا يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم - أو مستغليهم - ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم ويشرع بينهم شرعة المساواة والأمان ، وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه - مسلمين وغير مسلمين - أنه تكفل بالعبد إذا تحرر ، وبالغنى إذا افتقر ، وبالعائل إذا انقطع عائلوه ، وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد فى كتاب خالد . . قال : «إنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية وإنى نظرت فى عدتهم ، فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحونى على ستين ألفًا وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل : ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرًا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، أشدَّ ما أخذه على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم ، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا ، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيًا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم . وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم فى غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه إلى صاحبه ، ولهم كل ما لبسوا من الزى إلا زى الحرب ، من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب ، وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين ، عمالهم منهم ، فإن طلبوا عونًا من المسلمين أعينوا به ، ومؤونة القواد من بيت مال المسلمين» .

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من جانب آخر عزلاً فاصلاً بين الرعاة والرعية فى السواد وفى الديار الفارسية ، فنظرت الدهماء إلى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، فلا هى تعنيهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة ، بل هم بهذه العواقب ينعمون وإليها يتشوقون .

* * *

وكانت وقعة الفراض آخر أعمال خالد الكبار فى العراق وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معًا ، دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية ، عدا ما فيها من الحوادث التى هى أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة فى عهد إقبالها وتأتيه الأمة فى عهد إدبارها ، فهو ضربة موت من ناحية وهو من الناحية الأخرى كالضربة التى تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن إليه .

الفراض فى أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظروا متقابلين ، وقد هبط عليها خالد فى وثبة من وثباته ، فتألب عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم وكان وشيكًا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثته والمتنازعين عليه ، وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبى عبيد : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم ، فلم يصنع خالد صنيع أبى عبيد بل قال لهم : اعبروا أنتم إن شئتم ، وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب ، وأرسل الفرسان والرامحين ليعزلوهم قطيعًا قطيعًا ويضيقوا عليهم مسالكهم ، ثم يحصدوهم حصدًا وهم أشبه بالمحكوم عليهم فى ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين . .

على أنه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد «طهر» جوف الصحراء من جموع الأعراب التى تكونت إلى دومة الجندل وعوقت عندها زميله «عياضًا» قرابة عام ، فلما ترامت أنباء فتوحه إلى عياض كتب إليه يستشيره ويستنجده ، فكان هو على عادته أول جواب بعد رجع الخطاب ، وكتب إليه يقول :

لبث قليلا تأتك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب[1]

كتائب تتبعها كتائب

(١) السيف اللامع القاطع .

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة أسبوعين فقطعها هو فى أقل من عشرة أيام ، ووجد حصن الدومة مكتظًا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء ، فجعل القوم جميعًا بينه وبين عياض ، وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش فى نفسه من نخوة المنافسة وما جاش فى نفوسهم من الوجل والحيرة . وتدافع المنهزمون إلى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد إليه وانتزعه وحال بين النازلين فى الحصن ومن حوله ، ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء . . ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودى بن ربيعة ، استباها خالد لنفسه وقيل إنه اشتراها ، ثم بنى بها وأقام معها فى دومة الجندل أيام مقامه فيها .

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فأمعن القتل فيهم وجعلهم نكالاً لغيرهم . ثم قفل إلى العراق وهو مطمئن إلى غزوة الفراض بأعلى الفرات ، فغزاها وفرغ منها كما تقدم ، وبقيت له فى العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع ، فلم يلبث أن قضاها .

بقى على موسم الحج أسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات التى أمده الله فيها بنصره وعونه .

أيفوته قضاء الشكر فى هذا الموسم وأداء الفريضة فى موعدها؟ ولم؟ ألخوف من الأعداء؟ ألعائق من بعد الشقة ووعورة الطريق؟ ألعذر من الأعذار التى يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عنها . . ففى خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز وأدى الفريضة وعاد إلى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين إلا أقرب خاصته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج فى ذلك العالم .

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التى تنمُّ على فرط الثقة بنفسه ولا تنمُّ على شيء غير ذلك ، ولكنها فى الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على ثقته بنفسه . . فقد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية إذا جد فى غيبته طارق داهم أو خطب حازب . . وكفى بالمثنى رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم .

* * *

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام ، وإعجاب ، وتكليف ، ووصاة : أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذى أصابه فى حروب الدولة الفارسية ، وأن يسارع إلى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد فى الله حق جهاده .

وقال له : «سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا . وإياك أن تعود إلى مثل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجا من الناس نزعك . فليهنك أبا سليمان النية والحظوة . فأتمم يتمم الله لك . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن ولى الجزاء» .

وكتب إلى أبى عبيدة فى الشام يخبره بمقدم خالد إليه ، ويقول له فى كلام صريح : «سلام الله عليك . أما بعد . . . فقد وليت خالدًا قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرًا منه ، ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . . أراد الله بنا وبك خيرًا والسلام» .

فأرسل خالد إلى أبى عبيدة رسولاً يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه : «أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام ، وبالقيام على جندها والتولى لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذى كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمرًا . . . فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك» .

* * *

وأول خاطر سبق إلى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس إلى حرب الروم أنه عمل من أعمال «الأعيسر» كما يسميه ويعنى به عمر بن الخطاب ، وأنه نفس عليه أن ينفرد بفتح فارس فأرسله إلى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوى الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين .

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد ؛ لأنه يتوقع شيئًا من صوب عمر ولكنه لا يخطر على بال غيره . إذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ، ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدى كبار القواد من أجلاء الصحابة ، فهذا مزيد من الفخر يتطاول إليه المتطاول ، وليس بنقص منه يتعمده لخالد من يأباه

عليه . وإنما اختار الخليفة خالدًا ؛ لأن العراق كانت فى هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة ، وكان فى جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد ؛ ولأن خالدًا كان أقرب مدد إلى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة تضاف إلى قواتهم فى حرب الرومان . . فاختاره الخليفة وهو يقول «لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» .

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتًا - قل أو كثر - إذا نيط به أمر من الأمور ، فلما ندب للجهاد بالشام نظر فإذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة إلى ستمائة ميل على حسب الطرق التى يسلكها ، وهى أربع يختار منها أصلحها لإنجاز العمل الذى وكل إليه .

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الإسراع بالمطلوب دون أن تكون للغلبة عليهم فائدة تذكر فى القتال الحاسم بين المسلمين والرومان . .

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكلأ ، ولكنه بعيد يطول السير فيه . .

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلأ مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذى سأله خالد : «إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا مغرور . إنها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها . .» .

وأيسر شىء على القارئ الذى عرف خالدًا أن يعلم أى هذه الطرق يسلكه خالد ، فما هو بسالك حيث سلك إلا الطريق الذى هو أحوج إلى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضاء وأبعدها جميعًا أن يتوقع العدو هجومًا منه فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها ، وهو الذى خوفه الأدلاء منه ، وقال لدليله الأكبر رافع بن عميرة الطائى - ولا أحد يغنى غناءه فى السير بتلك المفازة المهلكة وإن كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضرير :

«ويحك إنه والله إنْ لى بد من ذلك» . . إن القوة تأتى على قدر النية ، وإن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله» .

ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : أكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله .

ثم قال لخالد : ابغنى عشرين جزورًا عظامًا سمانًا مسان فأتاه بهن فظمأهن حتى إذا أجهدن عطشًا أوردهن فشربن ، حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجتررن . .

وأشار على خالد أن يقتط أربعًا من هذه الجزور كلما نزل منزلاً ليسقى الخيل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء . ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم فى المفازة . . فقال له خالد : ويحك يا رافع ما عندك؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج فى موضع كان يعهدها فيه ويعهد فيه الماء على مقربة منها . فلم يجدوها . فصاح الرجل بالويل واسترجع قائلاً : «هلكتم والله إذن وهلكت لا أبا لكم ، انظروا انظروا» فلما نظروا وأمعنوا النظر رأوا جذرا قد بقى منها وقطع سائرها ، فكبروا فرحًا وشكرًا وحفروا فى أصلها فنبع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذى دونه كل خطر من لقاء الأعداء .

وفى ذلك يقول أبو أحيحة القرشى :

لله عينا رافع أنى اهتدى	فى مهمه مشتبه إلى سوى
والعين منه قد تغشاها الردى	معصوبة كأنها ملأى ثرى
فهو يرى بقلبه ما لا يرى	من الصوى تترى له بعد الصوى
فوز من قراقر إلى سوى	والسير زعزاع فما فيه ونى
خمس إذا ما سارها الجيش بكى	فى اليوم يومين رواحا وسرى
ما سارها من قبله إنس يرى	هذا لعمرى رافع هو الهدى

وسواء صحّت رواية الجزور المظمأة أو كان فيها شيء من توسع الخيال ، فالطريق الذى سلكه خالد معروف ، والقدرة عليه هى موضع العبرة والتأمل فى هذا المقام . . أما نحن فالذى نراه أن خالدًا لم يكن لينتظر حتى تظمأ الإبل وهى لا تجهد من الظمأ إلا فى أيام ، وأن الإبل لا تخزن الماء فى جوفها وإن لم تجتره دون أن ينصرف منها ، وأن عشرين جزورًا تمتلئ كروشها بالماء لا تسقى الخيل فى الجيش كله وعدته عشرة آلاف ، فلابد من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة إلى التخفف إلى الإقدام . .

والأمر الذى لاشك فيه بعد هذا كله أن خالدًا سار بجيشه - وعدته عشرة آلاف- من عين الثمر إلى قراقر، ثم من قراقر إلى سوى وبينهما تلك المفازة المهلكة، ثم إلى تدمر فالغوطة فبصرى، فقطع هذه المسافة فى ثمانية عشر يومًا؛ لأنه كما قال الشاعر كان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد . .

«فى اليوم يومين رواحًا وسرى . .»

خرج من الحيرة فى أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة، وطوى تلك المسافة فى تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديّار .

* * *

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين فى الشام تشرع فى خطة جديدة للتراجع إلى جنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة فى جمع واحد ينهض لها ويحول دون الإحداق بكل جيش منها على انفراد .

وكان الخليفة قد سيرها - بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة - مع أربعة من كبار القواد فى طرق مختلفة إلى وجهات متعددة .

فسير يزيد بن أبى سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف إلى دمشق، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا العدد إلى الأردن، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلاً إلى فلسطين، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف إلى الجابية، وأمدهم بعكرمة بن أبى جهل فى جيش صغير؛ ليحمى ظهور من يحتاج منهم إلى الحماية ويسرع بالنجدة إلى من يطلب منهم المعونة . .

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش فى طرائقها ووجهاتها، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة، ثم رغبة الخليفة فى تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد إذا أوغل فى البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد بن سعيد، فإن الجيوش الأربعة يكون كل منها مددًا لصاحبه ومانعًا للالتفاف به أو منقذًا له من الالتفاف إذا وقع فجأة، وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفوق الحاميات الرومانية فى

مواقع البلاد الداخلية ، إذْ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم ، واطمأنوا إلى جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف ، وهى حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة ، وزادهم اطمئنانًا أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهى حملة خالد بن سعيد ، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس ، فوقع فى روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين فى وقت واحد . . فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش فى زحفها إلى الشام أقرب إلى توزيع العمل والإسراع فيه ، فإن تغير الموقف وعمد الرومان إلى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون فى مقابلة هذه الطوارئ ، كما أوصاهم بالرجوع إليه .

وقد نجحت هذه الجيوش فى وجهاتها وتقدم بعضها إلى دمشق وبعضها إلى حمص وأوغل بعضها إلى فلسطين .

ثم نمى إليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير فى أنطاكية وجيش آخر فى جوار بيت المقدس ، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفًا ، وعدة الجيش الثانى سبعين ألفًا أو نحو ذلك ، ولو نزلنا بعدة الجيشين إلى النصف حسبانًا للمبالغة وجهل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشىء القليل ؛ لأنه يربى على ثلاثة أضعاف الجيش العربى كله بعد قدوم جيش خالد إليه ، ولم يرتفع به أحد إلى ما فوق الخمسين ألفًا على أعظم تقدير . .

فتشاور القواد فيما يصنعون ، فاستقر رأيهم على التراجع إلى الجنوب ؛ ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون ، كل منهم فى بضعة آلاف .

ولعلهم يصبحون فى تراجعهم أقرب إلى الأمن إذا حاربوا وظهورهم إلى الصحراء ، وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها فى أعقاب جيش كبير أو صغير .

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع إلى الجنوب . . فمنهم من يقول إنه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول إنه عمرو بن العاص . وهذا القول الأخير أدنى إلى الواقع ؛ لأن عمرًا كان يتراجع فى الجنوب قبل أن تصل

الجيوش الأخرى إليه ، وكان من الموافق لخططه أن توافيه الأمداد فى ميدانه بفلسطين .

وأيًا كان صاحب الرأى الأول فى هذا ، فقد تم التراجع بإقرار الخليفة وكان شعوره بحرج المسلمين فى أماكنهم هو الباعث له أن يستدعى خالدًا من العراق إلى الشام ، فكتب لقواده بالشام يقول : «اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى عشرة الآلاف والزيادة على عشرة الآلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

ومن المتعذر جدًا تمحيص التواريخ فى ترتيب الوقائع بعد وصول خالد إلى الشام ، ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر فى «أجنادين» بالجنوب ؛ لأن البدء بأصغر القوتين وإخلاء الجنوب قبل الانتقال إلى الشمال أوْلى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين ، ولأن معركة «أجنادين» لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين ، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد فى صعيد واحد ، ولو أنها وقعت بعد المعركة الكبرى فى اليرموك لما كان مفهومًا أن يترك أولئك القواد جيشًا كجيش الرومان فى فلسطين دون أن يتعقبوه جميعًا ، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير فى اليرموك .

وعلى أية حال ، هزم الروم فى «أجنادين» وكانت الوقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين فى اليرموك ، على اختلاف كثير فى التواريخ ، واتفاق فى تصوير خطة القتال .

ويحسن بنا قبل أن نستطرد إلى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء . .

فالجيش الرومانى كان أوفر عددًا وأكمل عدة بغير خلاف ، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والأرمن والعرب وأجانس أخرى ، وقد يظن لأول وهلة أنه امتاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه فى الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح إذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه ؛ لأن المتطوعين فيه من أبناء

القبائل كانوا يحاربون على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن آخر، وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التى حسبت من مزاياهم، فهى إلى النقص هنا أقرب منها إلى المزية .

وقد أثيرت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين، وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابًا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان . . فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضيرهم من ناحية، وليست هى من قوة اليقين المكين . .

أما جيش العرب، فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع إلى قيادة واحدة، وفى صدورهم من حمية القتال كل ما يحفز القلب الإنسانى إلى الثبات والاستبسال؛ غيرة على الدين وغيرة على العرض وناهيك بالغيرتين، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا إذا كتب له الفلاح، وكفى بإغراء النعيمين .

كان فى جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية؛ بنت أبى بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبى جهل وعقائل أناس من الجند والقادة، وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة «أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن، فإن كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه، وإن رأين أحدًا من المسلمين منهزمًا ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن، ورفعن إليه أولادهن وقلن له : قاتل عن أهلك وعن الإسلام» . . ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن : يا نساء المسلمين : أيما رجل أقبل عليكن منهزمًا فاقتلنه .

ومن أجل هذا، لانعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقًا فى عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوى شوراه : « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام كلها ويشاركوكم فى جبال الروم»، ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه .

أما المسلمون، فالصلح الذى فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم؛ الإسلام أو الجزية، فإن لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف .

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم فى نفوس أعدائهم مهابة على مهابة، فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور –

أخى القيصر – حسب هذا أنه يهولهم بالذبح والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم . فأقام لهم سرادقًا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه ، فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين : «إن ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباج» .

فهالوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه . . وأعسر شيء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الإيمان أنهم – وهم الغارقون فى المناعم والملذات – يقاتلون فى سبيل الله قومًا ، هذا مبلغ زهدهم فى المناعم واللذات ، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية .

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التى هم مقبلون عليها ؛ هى معركة فاصلة فى مصير الشام ما فى ذلك ريب . وقد تكون المعركة الفاصلة أيضًا فى مصير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية ، فإن هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته فى بلاده الآسيوية والأوربية ، وإن هزيمة الجيش العربى معناها هزيمة الجيش الأكبر الذى لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد تغرى القيصر الرومانى بإرسال قبائل الشام فى أعقاب المسلمين إلى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الإسلام ممن لاتزال لهم ترات تغلى فى حنايا الصدور . .

فاستعد الفريقان غاية ما فى الوسع من استعداد .

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما ؛ لأنه يوافق طلبة القيصر من مكان «واسع العطن ، واسع المطرد ، ضيق المهرب» ولا يكرهه المسلمون ؛ لأنهم رأوا أنَّ منزل الروم فيه منزل محصور بين النهر والبحيرة والوادى وجيش المسلمين . أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم : «أيها الناس : أبشروا . . . حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير» . . تحاجز الجيشان أشهرًا لا يشتبكان إلى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة .

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه ، وكلاهما قد عبأ طاقته من سلاح الأيدى ولم يزل يعبئ طاقته من سلاح النفوس ؛ سلاح العقيدة والفداء .

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة ، ويهونون على أتباعهم بذل الأرواح فى سبيل الملة والدولة والمجد القديم .

وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه وعلى العظات يذمرون بها القلوب ، وجعلوا وراءهم حرسًا من الأعراض هو أقوى الحراس بعد الإيمان . . ثم كثرت الحركة أيامًا فى جيش الروم ، فعلم القادة المسلمون أنهم مقتربون من الهجوم ، ولم يشأ خالد أن تبتدئ المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد فى نظام واحد ، فصرف همَّه الأول إلى تنظيم الفرق جميعًا فى تعبئة واحدة يقودها رجل واحد ، ووجد من زملائه قلوبًا مصغية فأجابوه إلى ما دعاهم إليه .

قال لهم قبل ابتداء القتال : «هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم ، فإن هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبئة وأنتم متساندون[1] ، فإن ذلك لا يجمل ولا ينبغى . . وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى» .

ثم قال وقد سألوه رأيه : « إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من إمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله . . . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله . . هلموا . . فإن هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده . إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدًا والآخر بعد غدٍ حتى يتأمّر كلكم ، ودعونى أليكم اليوم» .

فأسندوا إليه قيادتهم يومها ، وكان توحيده القيادة أول خطوة فى طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك . . ثم أسرع إلى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذى رآه ملائمًا للتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب « فى العمق» ـ كما يقول العسكريون فى هذه الأيام .

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن ، ويزيد بن أبى سفيان على الجناح الأيسر ، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب ، واتخذ مكانه فى كبة الجمع ولجأ إلى طريقته التى اختارها لحرب بنى حنيفة وهى طريقة الكراديس ؛ لأنها أصلح

(١) أى كل قائد مستقل بجنده عن الآخرين .

الطرق للنفاذ فى الصفوف ، وأدعاها إلى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء .

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة ، على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله فى حرب اليمامة عكرمة بن أبى جهل ، وزميله فى دومة الجندل عياض بن غنم ، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين . . وجملة الكراديس جميعًا ثمانية وثلاثون معظمها فى القلب ، وعدته ثمانية عشر كردوسًا رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع . .

وكان موضوع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الرومانى إذا أمعن فى الهجوم والإطباق عليه مع القلب إذا ارتد إلى الوراء .

وفرغ من التعبئة فعمد إلى «القوة الأدبية» يوليها حقها من عنايته الكبرى ، وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال ، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه فى حركاته ، وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : «غضوا الأبصار . واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزى بالإحسان إحسانًا ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفرًا كفرًا وقصرًا قصرًا ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الجحول»[1] .

وخطب مثله معاذ بن جبل وأبو سفيان ، وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة فى القلب يرتجزان ، واختير يوم القتال فى يوم ريح سموم سافياء[2] فى حَمارَّة القيظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم .

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق ، ولكنه بدأ كما تعودنا فى حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثانية لحمية العقيدة ومراجعة الإيمان والاعتصام بنية الفداء .

فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا إلى عزماتهم بنخوة الإيمان

(١) الجحول أى : أسراب النحل .   (٢) أى : محملة بالتراب .

ونخوة العرض والأنفة ، فضرب النساء فى وجوه الخيل قائلات : «إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة!» وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه : «قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ؟ من يبايع على الموت ؟» فبايعه أربعمائة من الفرسان المغاوير لا يقوم فى وجههم قائم ، وصدموا الروم حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم ، وقد قتل فى طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان ، ولم ينج منهم قط إلا جريح مثخن بالجراح ، وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم .

* * *

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته ، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق ، ورجع المشاة إلى الخنادق فلحقهم بها المسلمون ، ثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون فى هوة الواقوصة أو وادى الرقاد . وقيل ان موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم فى حومة الوغى ؛ لأنهم قدروا بثمانين ألفًا سقطوا فى الوادى فُرادَى وجماعات ؛ إذ كان بعضهم يقرنون أنفسهم فى السلاسل كل عشرة فى سلسلة واحدة تثبيتًا لأقدامهم وتيئيسًا من الفرار ، فإذا بالوجل يفل حديد السلاسل كما فل عزائم القلوب وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا فى أماكنهم ينتظرون الموت ، فكأنهم قد فروا قاعدين!

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعًا بعد اليرموك أن يودع الشام إلى عاصمة ملكه المتصدع وداعًا - كما قال . . ليس بعده لقاء .

٨ العـــزْل

يســتـحق الرجل أن يســمَّى بطلاً من أبطال التــاريخ إذا كــان له «دور تاريخى» يقضيه ويتسم بملامحه ودواعيه . .

وآية انقضاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الأعمال المقدورة له قمتها العليا التى لا قمة وراءها ، وأنه يعدو هذا الدور فإذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثل حقه فى أدوار التاريخ ، أو يعدوه إلى أعمال يغنى فيها الآخرون مثل غنائه ، وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابه .

وقد بلغ خالد فى معركة اليرموك قمته العليا التى لا مرتقى بعدها لراق : قمع فتنة الردة ، وضرب دولة الأكاسرة ضربته الدامغة ، ووحد قيادة المسلمين فى حرب الرومان فصدهم إلى ما وراء حدودهم ، وخلت ميادين الشام بعدها من أعمال يصح أن تسمَّى بالأعمال الخالدية . فهى بين حصار أو مراوغة أو تسليم ، وإنما يراد خالد لتحطيم قوى الأعداء التى تعز على التحطيم .

وإن يكن من عمل «خالدى» فى ميادين الشام بعد معركة اليرموك فهو عمله فى مرج الروم ، ثم عمله فى قنسرين(١) .

ففى مرج الروم ، كان هو وأبو عبيدة ينازلهما قائدان رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالد ، فتسلل توذر تحت الليل ليفاجئ الجيش العربى عند دمشق بقيادة يزيد بن أبى سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين . فاتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجأته من خلفه قبل أن يفاجئ يزيد بن أبى سفيان فأوقعاه فى الفخ الذى نصبه ، ولم يرجع خالد إلى أبى عبيدة إلا وتوذر مقتول وجيشه مبدد كما قال :

نحن قــتلنا توذرا وشـــوذرا ... وقــبله مــا قــد قــتلنا حـيـدرا

نحن أزرنا الغـيـضـة الأكـيـدرا

---

(١) قنسرين وقنسرون – كورة بالشام – إعجام الأعلام ، ص ٢٣٢ .

وفى قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونها فطاولوا وأبرموه . فقال لهم محنقًا : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا» وأبَى أن يصالحهم بعد ذلك إلا على تخريب المدينة ودك حصونها ، فختمت بذلك ضرباته الخالديات . .

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره التاريخى » أكمل وفاء ، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شيء ولا تغير مجرى الحوادث فى أعقاب هزيمة الرومان .

* * *

أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففُتحت بقية فارس ، وفتحت مصر وشطر من إفريقية الشمالية ، وكتبت بذلك «أدوار تاريخية» أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العاص ، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم فى المقدرة ولا يقلون عنهم فى المقصد والنية ، وكل زيادة فى عمل خالد لا تضيف إليه مجدًا فوق مجده ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم الإسلام أيديًا كثيرة تعمل له وتدفع عنه ، وليس هو بمستغنٍ عن تلك الأيدى الكثيرة بيد واحدة ، بالغًا ما بلغ بها الرجحان والاستعلاء .

قلنا فى أول هذا الفصل إن انقضاء «الدور التاريخى» لبطل من الأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره إلى أعمال يغنى فيها الآخرون مثل غنائه وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابه ، ونزيد على هذا أن غناء الآخرين فى هذا خيرًا من غنائه لهو أولى أن يدل على انقضاء دوره وانتقاله إلى من هو أحق به وأخلق .

وفى ميدان الشام – بعد معركة اليرموك – كان أبو عبيدة بن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد ؛ لأنه موقف التسليم والمسالمة واستلال الحقود وضمد الجراح وتقريب القلوب ، وفى جميع أولئك يتسع المجال لهوادة أبى عبيدة ويضيق بضربات خالد . . فأبو عبيدة يسرع إلى المسالمة إذا فتحت له أبوابها ، ولا يبطئ عن الحرب إذا وجبت عليه أسبابها ، فإن كانت بالمسالمة جدوى فذاك ، وإن كان يوم الضربات الخالديات فهى لديه يرمى بها فى مراميها ، وإنما يكون العمل الأول هنا لمن يسالمهم ويتقبل التسليم ، ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على

الذين يلجون فى العداء كأهل قنسرين ، فلا يسلمون إلا بتخريب الديار ودك الحصون .

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبى عبيدة فيقبلون على التسليم إليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حينًا ويسخط منه حينًا ، كما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبى عبيدة فى العفو عن أهلها . فإنه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبى والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة ، ولولا أنه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرط على أهل قنسرين .

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا بإسناد الأمر إلى أبى عبيدة بن الجراح فى أوانه المقدور ، وإن كان تلاقيًا لم يجر على قصد مرسوم .

* * *

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان . .

ورأى الفاروق فى أبى عبيدة بن الجراح معروف . فقد كان لا يعدل به أحدًا من الصحابة الأولين ، وقد همَّ بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبى عليه السلام ، وقال وهو يجود بنفسه : إنه لو كان حيًا لعهد إليه ولم يلجأ إلى مجلس الشورى الذى وكل إليه أمر انتخاب الخليفة بعده .

وتحدث عمرو بن العاص مرة إلى الفاروق فى رئاسة الجيوش الموجهة إلى الشام ، فأجابه فى مقال صريح : « . . أنه ليس على أبى عبيدة أمير ، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبى عليه السلام قال فيه : أبو عبيدة أمين هذه الأمة» .

وكما عرف رأى الفاروق فى أبى عبيدة عرف كذلك رأيه فى سابقة الإسلام والغزو على الإجمال ، فإنه خالف الصديق فى التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق فى توزيع الأرزاق والأنفال ، وجعل للرجل نصيبًا يختلف باختلاف سابقته فى الإسلام والجهاد ؛ لأنه «لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، ولا يسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف » .

فإقامة أبى عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره ، وبخاصة حين تكون إمارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول ، إنما هى اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يومًا بعد يوم .

* * *

وبهذه المثابة تكون ولاية أبى عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون «قضية» بين الفاروق وخالد على الصورة التى هول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محورًا للجدال والتنقيب عن الأسباب والأقوال .

وإذا نحن تجاوزنا النظر إلى الموضوع من جانب هذه السنة العمرية ، فولاية أبى عبيدة كانت فى اعتقادنا أصلح الولايات للشام فى تلك المرحلة التى انتهت إليها الحرب بين المسلمين والروم .

فما نظن أحدًا تفوته حاجة الشام فى مثل تلك المرحلة التى انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى ، وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة ، وهذه مهمة وال يُحسن الحرب ويحسن التوجيه إليها فى مناسباتها ، وليست مهمة قائد عسكرى يجرى الأمر على سنة السطوة العسكرية ، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء فى ضربة طاحنة ، ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والإحراج ، كما كان دأب خالد فى بطشاته التى لا تبقى بعدها بقية لغير الإجهاز .

وإذ تكون هذه هى المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك ، فلا خلاف فى أى الرجلين أولى بالولاية عند ذلك ؛ أبو عبيدة بن الجراح أو خالد بن الوليد ، سواء أكان الخليفة على رأى الفاروق أم كان على غير هذا الرأى فى أمين الأمة وفى سوابق الإسلام والجهاد .

* * *

ونمى إلى الفاروق بعد ذلك أن خالدًا وعياضًا أغارا على بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب ، وأن الأشعث بن قيس قصد خالدًا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم ، وأجاز آخرين من «ذوى البأس وذوى الشرف وذوى اللسان» .

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب إلى أبى عبيدة أن يقيم خالدًا ويعقله

بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنه من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف «وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم إليه عمله - وكان يومئذ يولى أمور قنسرين - وأن يقاسمه ماله نصفين . .

فصدع أبو عبيدة بالأمر ، وجمع الناس وجلس على المنبر ، ودعا بخالد فسأله : يا خالد . . أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يُجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة ، فوثب إليه بلال مؤذن النبى عليه السلام وقال له : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول عمامته ونفضها وعقله بها وخالد لا يمنعه ، وسأله : ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ فقال : لا ، بل من مالى ، فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا» .

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا . فقال خالد : أجل ، ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك .

ولما علم خالد بعزله ، ذهب إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم ثم ذهب إلى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال فى بعض خطبه : «إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بثنية وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى «فنهض له رجل من السامعين فقال : صبرًا أيها الأمير ، فإنها الفتنة . فما تردد خالد أن قال : أما وابن الخطاب حى فلا» .

ثم قصد إلى المدينة فلقى الفاروق فقال له : «لقد شكوتك إلى المسلمين . وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر . .» فسأله الفاروق : من أين هذا الثراء؟ قال : من الأنفال والسهمان . ما زاد على الستين ألفا فلك» فزادت عشرون ألفا فضمها إلى بيت المال ، ثم قال له : يا خالد ، والله إنك علىَّ لكريم ، وإنك إلىَّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد على شىء» وأرسل إلى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه : «إنى لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا ، وألا يكونوا بعرض فتنة» .

* * *

تلك قصة خالد والفاروق . .

وهى قصة تؤلم وتؤسف ، إلا أن الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التى لا محيد عنها ، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق . .

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة ؛ لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير .

وأبعد شىء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة فى نفس عمر أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء ، أو لغير سبب من تلك الأسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة . .

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم - كما سبق إلى وهم بعض المؤرخين - أن عمر قد عزل خالدًا لبغضاء قديمة مرجعها إلى الصراع بينهما فى أيام الصبا ، وأن خالدًا صرع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجدًا عليه . .

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم إلى ظن من هذه الظنون . فليس بين رجال التاريخ جميعًا من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب ؛ لأنه ليس بينهم جميعًا من هو أشد حسابًا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس فى نفسه نية ذحل أو ثأر قديم لكان أثر هذا الإحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه .

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته . . فكذلك صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص،، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة ، وقد عزل زياد بن أبيه ثم قال إنه عزله «لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله» وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو أنه من قريش ، ولقد تبين بعد أنه من قريش .

* * *

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعًا أن يراجعوه فى الأموال ، وبذلك أشار على أبى بكر فوافاه الحساب من كل وال إلا خالدًا أبى وأغلظ له فى الجواب حيث قال : «إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك وعملك » .

فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا

بعيرًا إلا بأمره ، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله ، فلم يطقها عمر وقال ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه» .

هذا إلى الخلاف بين سنن عمر فى سياسة الناس وتصريف الشئون وسنن خالد التى طبع عليها . فعمر كان يحب الأناة قبل القتل والقتال ومن ثم كان إنكاره لمقتل بنى جذيمة ومقتل مالك بن نويرة ، وعفوه عن أسرى السواد خلافًا لما صنع بهم خالد فى معركة «أليس» أو «نهر الدم» كما سميت بعد ذلك . وقد حرم عمر «قيس بن سليط» أن يقود جيشًا هو كفء لقيادته قائلاً له : «لولا أنك رجل عجل فى الحرب لوليتك هذا الجيش ، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث» .

وإذا كان عمر قد أوجس من عقل زياد بن أبيه وهو مجهول النسب ، فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر ، إنه لعظيم النزعة إلى الاستقلال ، وإنه لمن بنى مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين ، وله صهر فى سائر القبائل والبطون ولأبنائه أخوال فى بنى تميم وبنى حنيفة ، ولشهرته سحر فى نفوس الناس يفعل الأعاجيب ، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسابه ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور فى دولة الإسلام . فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة ودولة القياصرة رجع إلى المدينة يوما فإذا هو يغرز فى عمامته السهام ويدخل المسجد بدرع القتال . . فبعد غلبته على الأكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره فى الأمصار ، ماذا يجرى لو وهن الحكم يومًا بعد «ابن الخطاب»؟

أما و «ابن الخطاب» حىّ فلا . كما قال خالد . ولكن ابن الخطاب لا يدوم ، والعواقب لا تنكشف ، وعزل خالد نقص يعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملوا كما عمل ، ومن أثرهم أن يثوب الناس إلى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن بغيره .

* * *

أما الاحتمال الآخر - إن حدث - فالخطر فيه عظيم والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل .

وهذا كله فضلاً عن مرد العزل إلى القسطاس الذى يرد إليه حساب جميع القواد والولاة ، ولم يفت ذلك خالدًا بعد هدوء الغضب والمثوبة إلى الرأى ، فقال فى

مرض وفاته لأبى الدرداء : «قد كنت وجدت عليه فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، كنت وجدت عليه فىْ نفسى حين بعث إلىَّ من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد بدرًا ، وكان يغلظ علىَّ وكانت غلظته على غيرى نحوًا من غلظته علىَّ ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالى قريبًا ولا لوم لائم فى غير الله . فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر علىَّ عنده وما كان ذلك إلا على النظر - كنت فى حرب ومكابدة وكنت شاهدًا وكان غائبًا فكنت أعطى على ذلك ، فخالفه ذلك من أمرى» .

ولقد توفى رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب . .

ونحن اليوم ننظر إلى القصة بعين التاريخ فنرى - كما أسلفنا - أن الفاروق إنما ختم دورًا ختمه القدر وانقضت به الحوادث . فلم يكن بعد القمة التى ارتفع إليها خالد فى ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع غير تلك القمم التى تسنم فيها صعدا من غلبته على طليحة ومسيلمة إلى غلبته على القياصرة والأكاسرة : تلك هى قمة التجمل والإخلاد إلى الواجب الأليم يوم عزله . فهى والله لمما يحسب له إلى جانب قممه البواذخ ، قمم العظيم الظافر الجسور . . وأين - لولا عزله - كنا نبصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع؟

٩ عبقريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فإذا بهم يردون النصر فيها إلى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة.

كسب بعض المعارك؛ لأن الأقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها؛ لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس.

وكسبت معارك حاسمة؛ لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار، وكسبت معارك غيرها؛ لأن الرماح كانت تتلاحق في طولها على حسب الصفوف.

وفي بعض المعارك كان الفرسان في الوسط، فقيل إن هذا كان من دواعي النصر العاجل، وفي معارك أخرى قيل إن دواعي النصر إنما ترجع إلى قيام الفرسان على الجانبين..

وكثيرًا ما يقال إن اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كفيل بالغلبة في بعض الميادين. ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال إن تربص الفرسان بمعزل عن القتال إلى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال، وربما قيل إن ظهور الفرسان في ميدان يضيق عن حركات المناورة جنى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل في صفوف هؤلاء وهؤلاء..

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر إلى قاعدة موجزة فيقولون كلامًا يحسن الاطلاع عليه، ولكنه كلام يقرأه القائدان معًا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة.

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التي توجز لك البلاغة الشعرية في كلمات ثلاث وهي: الوزن، واللفظ، والمعنى.. ولا خطأ في هذا الإيجاز، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب.

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع الفروق بين

معركة ومعركة وميدان وميدان ، وأن القائد الموفق هو الذى يلمح هذه الفروق فيعمد إلى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالقدر اللازم ، فلا ينقص أو يزيد ، ولا يتقدم أو يتأخر ، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق . .

وإذا كان كل شيء فى المعركة يتوقف أحيانًا على كذا أو كذا من الخطوات فى السبق إلى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الأشبار فى طول الرماح ، وكذا أو كذا من التفاوت فى سرعة القذيفة هنا أو هناك ، أو كذا وكذا من الحركات إلى اليمين أو إلى الشمال وإلى الأمام أو إلى الوراء ، فتفصيل أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل ؛ لأن إثبات الفوارق بين المعسكرين فى الأسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور ، وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالإجمال دون التفصيل .

وإجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال ، وهى الشجاعة والنشاط والجلَد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير .

كان يضع الخطة فى موضعها ساعة الحاجة إليها . . فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانًا بغير كمين ، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعى والأحوال .

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار والاحتلال وعلم أن الخبر قوة وسلاح ، فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرًا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه . .

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية يعززها ما استطاع فى جيشه ويضعضعها ما استطاع فى جيش عدوه .

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة ، وتشيع فى نفوس أعدائه فيسرى إليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة .

* * *

وإلى هذا ، كان يعتمد على قوة الإيمان وهمة الأمل ، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفى أثناء القتال ، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذى هو ضرب من العمل ، فإذا قال : «إن الصبر عز وإن الفشل عجز وإن الصبر مع النصر» فليست هى أصداء تمر بالهواء ، ولكنها فى العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمع وجنان . .

وإلى هذا وذاك ، كان يثير المنافسة الكريمة فى صدور جنده وأعوانه ، فيدعوهم إلى التمايز والتناظر لينفث فيهم مع عزيمة الإيمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار .

ويتخذ من الغيرة على العرض مددًا لهذه العزائم التى تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة ، فإذا بالرجل الفرد يبلى فى قتاله ما ليس يبليه عشرات .

* * *

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد إلى هذا المقتل فى منازلات للمستبدين والطغاة . فإنهم فى جيوش الأمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون إلى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم إلى مقام القطيع السائم . فإذا أصيب القائد فى الجولة الأولى ، فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها ؛ لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات .

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التى يجمعها «الخبراء» فى عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات .

قرأنا فى كتاب «فن الحرب اليوم»(١) لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء :«عند بحث هذه المسألة ينبغى أن نحضر فى أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة إلا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال ، وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع ، أى النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب ، والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر . . ومجمل ما يقال بعد هذا أن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكردوس أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح

(١) Warfare Today تأليف الأميرال باكون والجنرال فلو ومارشال الطيران باتريك بلايفير .

الضارب ؛ لأن الرماة بالقذائف يحتاجون إلى مدى مكشوف . وإنما يتأتى الضرب فى العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات» .

إن خالد بن الوليد لم يقرأ ولم يفته شيء بفواته عنه ؛ لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية ، فقاتل بالصفوف حيث تغنى الصفوف وبالكراديس حيث لا تغنى إلا الكراديس .

وفى هذا الكتاب أيضًا يقول المؤلفون : «يتضح مما تقدم أنه فى حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان ، وهما : الاستطلاع ، وكتمان الحركات ، والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أى موضع تكون» . .

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث فيقولون : «وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفى خلالها ، وتتقدم الكراديس فى أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف به حين تدعى إلى الهجوم» .

وهذه هى ربيئة خالد للاستطلاع ، ومسيره «على التعبئة الكاملة» التى يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذى كان يسير عليه ، ثم يدخل فى التحام قريب ولا يطيل فى موقف التقاذف بالنبال والسهام .

وتقرأ فى كتاب «الأسلحة وفنون التعبئة»(١) لمؤلفه ونترنجهام الذى كان محررًا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة : «إن سرعة الحركات وقوة الإصابة وتدبير الوقاية هى الآن ـ كما كانت فى كل زمان ـ بعض مفاتيح النصر التى لاشك فيها ، فإذا كسبت المعارك أحيانًا بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا إنما تستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى قوة الإصابة أو فى تدبير الوقاية .

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصحراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام ، ولايزال واثقًا بالوقاية حيثما حارب وظهره إلى الصحراء أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام .

* * *

(١) Wintringham: Weapons and tactics

ووضع الخبير الحربى المشهور ليدل هارت [١] كتابًا مستقلاً عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه فى قوله : «إن التحرك فى الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة ، وفى الحرب ـ كما فى المصارعة - إنما يتأتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفادًا لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمك ، ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة إلا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحو من الأنحاء ، وقد يضعف الحسم فى النتيجة مع ذاك . . وعلى نقيض هذا ، ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا فى عصر واحد ، وفى جميع الحروب الحاسمة على التقريب ، أن الإخلال بتوازن العدو نفسيًا وماديًا هو المقدمة التى لا محيص عنها للقضاء عليه» . .

وهذا الإخلال بالتوازن هو الغاية التى كان يتوخاها ابن الوليد ، إما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات ، وإما بالمفاجأة التى لا تتوقع بحال من الأحوال ، وإما بالكمين الذى يدخل اليأس على العدو فى ساعة بالتطويق من حيث لا ينتظر التطويق .

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن ، وكل ما يزلزل أقدام الإنسان فى الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان ، ولكن القدرة حق القدرة هى معرفة الوقت ، ومعرفة الوسيلة ، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة ، وبهذا دون غيره تتجلى «معرفة» القواد الملهمين . .

وقال خبير حربى آخر هو أرثر برنى[٢] فى كتابه «فن الحرب» معقبًا على حرب الفرس واليونان : «كانت قوة الفرس ، جنودًا ، قائمة على الخيالة والرماة ، وكانت طريقتهم فى القتال أن يمطروا العدو سهامًا ، ثم يجترفوه بجملة من الفرسان فى الوقت اللازم ، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين ، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين ، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين ، لكنها خابت مع اليونان ، وكانت التبعة فى خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية ، فإذا ما استطاع الجند الإغريق أن يقتربوا - وكل شىء يتوقف على هذا - تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة . .» .

---

(١) The Strategy of Indirect approach: by Liddell Hart

(٢) The Art of war : by Arthur Brinie

ولو عمم هذا الخبير القول لوجب أن يقول إن الذى خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذى خيبها مع العرب من أيام ذى قار إلى أيام خالد بن الوليد ، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجنة[1] التى احتمى بها العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل ومن الفيلة فى بعض الأحيان ، وقد قيل فى الأمثال الشعبية التى هى أصدق من قواعد الخبراء «الذى تغلب به العب به» وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندى الذى ينافح عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف ، فلم يلق الفرس ولا الروم إلا فى التحام .

وقد صح هنا رأى ونترنجهام مؤلف كتاب «الأسلحة وفنون التعبئة» الذى سبقت الإشارة إليه حين قال : «إن بعض الجماعات الإنسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب إلى السماء ، فإنها تنتظم على سنن فحواها أن التغيير لا ينبغى وأن العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، إن كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التى هى أقرب إلى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم ، فإذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال برزت وفى رءوس قوادها وجنودها فكرة عتيقةعن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الإطلاق ، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقًا للترتيب الذى وضع منذ عهد بعيد وإن هذه الجماعات لتخرج جيوشًا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التى يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ . .

ولو شاء صاحب هذا الرأى لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية ؛ لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهى على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد .

وجملة القول أن خالدًا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناسًا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية ، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم فى الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون فى مراتبهم بديوان التشريفات ، وكان خالد يلبى الضرورة عفو

---

(١) الجنة أى الدرع أو الوقاية .

الساعة فى ترتيب كل كتيبة وكل سلاح ، فإذا بدا له أن الخيالة لا تجدى فى الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات فى أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه فى الدماغ ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه فى كره وفره وهجومه ودفاعه .

وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة ، فما هى إلا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها إلى قائدها المختار : «تمايزوا أيها الناس» فإذا هم بعد لحظات متمايزون . .

وكانت مادة القتال التى يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه ، فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود ؛ لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود ، وكانوا يصبرون على الهزيمة ؛ لأنهم عرب معودون فى غزواتهم أن يكروا بعد فر ، وأن يجتمعوا بعد تفرق ، فهم يحسبون النكوص ضربًا من التحفز للوثوب ، أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعًا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة إذا سقط منها الحجر الأول . . فلا تماسك بعد ابتداء السقوط . .

ومن ثمَّ كان نمطًا فريدًا بين قواد التاريخ ؛ لأنه يمزج الفن بالبديهة ، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة . . وكان يقتبس ويجدد بالرأى والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة «القبة والأعنة» يصح أن تسمى غريزة الميدان . وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وإن كنا نعتقد أن القائد العبقرى تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح .

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمن القديم تقدمه إلى المرتبة الأولى بين أكبر القواد ، ومنهم الإسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوًا كعدوه فى ميدان كميدانه . فالإسكندر فى وقعة «أرهل» هزم جيشًا فارسيًا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة ، وبلزاريوس فى وقائع أرمينية هزم جيشًا فارسيًا تقدر عدته بأربعين ألفًا أو قرابة الأربعين . . والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معًا فى هذا الميدان ؛ لأن الإسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفًا وبلزاريوس كان يقود نيفًا وعشرين ألفا ، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة فى ذلك الزمان . .

وقدكان خالد يحارب بثمانية عشر ألفًا جيوشًا أعظم من الجيوش التى تصدى

لها القائدان الكبيران ، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين ، ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده ، وزاد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم ، ومنهم الرومان فى أكبر الميادين ، ميدان اليرموك .

فكان خالد فى التاريخ العسكرى هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن ، أو اشتهروا بالعبقرية ، أو اشتهروا بالمناقب الشخصية . وفيه من ملامح القيادة فى العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة ، وأنه كان كما يقال قائدًا من فرع رأسه إلى قدميه .

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها ، فبحثوا ونظروا فلم يجدوها ، فما زال يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا فى طلبها حتى وجدوها ، فإذا هى خلقة لا تساوى شيئًا . فسئل عن ذلك فقال : «اعتمر النبى ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا تبين لى النصر» .

رحمه الله! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب . . فما زال معلومًا عن كبار الجند أنهم يأنسون إلى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت . وما فى ذلك من عجب ، فليس أحوج إلى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء .

وقال خالد فى أخريات عمره : «ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام أحب إلىَّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين ، أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد» .

هذا حبيب الحرب الذى يهواها وتهواه ، فله منها الصفوة التى لا تصطفى بها أحدًا من الطلاب والقرناء على بغضاء .

١٠ مفتاح شخصيته

تقدمت الإشارة إلى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب فى ملامح الوجه وطول القامة ، وأنهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم إليهما ، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن أنه يخاطب خالد بن الوليد .

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة إلى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ، فكلاهما يجوز أن يقال فيه إنه «جندى» بالفطرة وإن «مفتاح شخصيته» هو السليقة الجندية ، فإذا أحضرنا فى أخلادنا كلمة «الجندى» أو الجندى المطبوع لم نجد فى ابن الخطاب ولا فى ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة فى معنى من معانيها . .

وبين الرجلين فارق لا خفاء به فى الخلق والتفكير .

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جندى مطبوع على الخلائق الجندية ، ولكن ابن الخطاب تغلب عليه ، من مزاج الجندى ، ناحيته الروحية أو ناحية الضمير ، وابن الوليد تغلب عليه ، من هذا المزاج نفسه ، ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب . .

وأصح من هذا أن نقول إن عمر كان جنديا فى أخلاقه الوازعة الحاكمة ، وإن خالدًا كان جنديًا فى أخلاقه الدافعة الهاجمة . وفى الجنود ، كما لا يخفى ، هذه الأخلاق وهذه الأخلاق .

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنما هو قبل كل شىء فارق بين نفسين ، أو بين رجلين ، أو بين «شخصيتين» .

لكن هذا لا يمنع أن يكون فى الوقت نفسه فارقًا بين «قبيلتين» وبين أسرتين وبين نشأتين . . فإن الفوارق بين بنى عدى قبيلة عمر وبين بنى مخزوم قبيلة خالد لخليقة أن تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين . .

فبنو عدى - آل عمر - كانوا فى الجاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالفصل فى

الخصومات وقد ذاقوا ، كما قلنا فى «عبقرية عمر» ، «طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس ، وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم . . فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه . .» .

أما بنو مخزوم - آل خالد - فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء ، وكانوا فى الجاهلية موكلين بالخيل والسلاح ، معتزين بالعتاد التليد ، والعدة والعديد .

وكان ثراؤهم يملى لهم فى أسباب الترف والنعيم كما تملى لهم فيه مزية أخرى من المزايا التى تكلفها للقبيلة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة . . وتلك المزية هى جمال النساء .

فقد كان يقال إن «المخزوميات» رياحين العرب .

وكان فى رجالهم ذلك الغزل الذى أخرج منهم شاعره الأول عمر بن أبى ربيعة ، بل أخرج منهم غزلين ظرفاء حتى فى النساء والأتقياء . .

جاء فى كتاب الأغانى عن أبى السائب المخزومى : «أنه كان رجلاً صالحًا زاهدًا متقللاً يصوم الدهر ، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلاً ، فوجه ابنه يومًا يأتيه بما يفطر عليه ، فأبطأ الغلام إلى العتمة ، فلما جاء قال له : يا عدو نفسه ، ما أخرك إلى هذا الوقت؟ قال : جزت بباب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته . فقال : هات يابنى ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ولئن كنت أسأت لأضربنك ، فاندفع يغنى بشعر كثير :

ولما علوا شغبًا[1] تبينت أنه ... تقطع من أهل الحجاز علائقى
فلا زلن حسرى ظلّعًا قد حملنها ... إلى بلد ناء قليل الأصادق

«فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل ، فقالت له زوجته : قد انتصف الليل وما أفطرنا . قال لها : أنت طالق إن كان فطورنا غيره . فلم يزل يغنيه إلى السحر . فلما كان السحر قالت زوجته : هذا السحر وما أفطرنا ، فقال : أنت طالق إن كان سحورنا غيره ، فلما أصبح قال لابنه : خذ جبتى هذه وأعطنى خلقك ليكون الحباء فضل ما

(١) منهل بين طريقى مصر والشام .

بينهما . فقال له : يا أبت أنت شيخ وأنا شاب . وأنا أقوى على البرد منك . قال :يا بنى . . ما ترك صوتك هذا للبرد عليّ سبيلاً ما حييت» .

واطرح كل ما فى هذه القصة من المبالغة والإغراق تبق منها بقية كافية لبيان مكان الغزل من نساك بنى مخزوم ، فضلاً عن الشعراء والظرفاء .

وندع القبيلة إلى الأسرة فيتراءى لنا فى النظرة الأولى ذلك الاختلاف الذى لابد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد ، أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن فى ملمسه ، وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين .

لكنه مع هذا فرق فى المعيشة لا يتغلغل إلى بواطن الطباع ، إنما الفرق المتغلغل إلى بواطن الطباع ، بل إلى أعمق أعماقها ، هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد .

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا «قلق عصبى» فى هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف فى أفراد منها ، واعتدل بعض الاعتدال فى آخرين . .

فعمارة بن الوليد هو الذى بلغ منه الاضطراب أن يراود امرأة فى محضر زوجها ، وأن يجترئ على حرم النجاشى بالمغازلة ، ثم يجترئ بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة ، ثم ينطلق مع الأوابد فى الآجام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قول لا يخفى مدلوله فى لغة العصر الحديث . .

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتفزع فى نومه . فذاك أثر من آثار «أعصاب الأسرة» كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات فى أبنائها ، وإن كان يجمح بهم فى حين ويكبح فى حين . .

وقد كان خالد يغضب فينقع لونه كما جاء فى كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها ، وقد كانت علة المغاضبة أن أبا عبيدة يحسب التسليم صلحًا ، وخالدًا يحسبه غلبًا يحق فيه على المغلوب جزاء السبى والاغتنام والقصاص . .

وكانت فى خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة ، وفى القليل الذى بلغنا إشارة إلى الكثير الذى لم يبلغنا . فقد غاضب أبا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر . وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه :«لقد هممت

ألا أكلمك أبدًا فأصلح بينهما النبى عليه السلام وهو يقول لخالد : «يا خالد . . مالك ولعمار . . رجل من أهل الجنة قد شهد بدرًا» ثم يقول لعمار : «إن خالدًا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار» .

فهذا الفارق بين الأسرتين ، وذلك الفارق بين القبيلتين ، مفسران صالحان لاختلاف لونى «الجندية» فى شخصية الرجلين العظيمين . عمر إلى الجندية الموزوعة وخالد إلى الجندية المدفوعة ، وعمر إلى الشظف المختار وخالد إلى المتاع المباح .

ولا يرد إلينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذى أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرات ، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس فى عذره والثناء عليه ، ونعنى به الخليفة الصديق .

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة الحياة ، فلم يفرغ من الحرب قط إلا انقلب منها إلى واد ظليل فى صحبة زوج محببة إليه ، فقضى فى وادى الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيه بنت مجاعة وبنت المنهال ، وقضى فى دومة الجندل أيام الهدأة بين الوقائع فى صحبة ابنة الجودى الحسناء ، واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز ، وأغضب الفاروق ؛ لأنه «كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بثخين معجون بخمر» فلما لامه الفاروق فى ذلك قال : إنا قتلناها فعادت غسولاً غير خمر ، ثم قال يخاطب عمر :

سهل أبا حفص فإن لدينا شرائع لا يشقى بهن المسهل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه حميا الخمور ، والخمور تسلل

وفى كل أولئك هو سليل حق لبنى مخزوم ولبيت الوليد ، وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفزرة التى تجنح به إلى المتعة فى أيام الدعة كما تجنح به إلى البطش فى مقام الجلاد والعناد ، وتفسر لنا الجندى الذى تميل به القوة الحيوية تارة إلى لقاء الحسان وتارة إلى لقاء الأقران .

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال : «ما ليلة يهدى إلىّ فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد» . .

فالحرب عنده اشتهاء ، والعروس عنده غاية المتاع . .

والحرب فى رأيه حسناء تشتهى أبدًا ولا تشيب كصاحبة الزبيدى التى تكون فى مبدئها «فتية تسعى بزينتها لكل جهول» ثم تصيح :

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

وأيًا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير ، فهى متعة القوى اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم .

هى متعة المسافر الذى يستريح إلى الواحة ؛ لينفض عنه الجهد ويتزود منها لجهد جديد ، وليست متعة المتهافت الذى يتوق إلى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين إليها ولا يفيق من سكرتها .

بل هو يحب المتعة ؛ لأنه يحب الجهاد ، فإذا طالت عافها وبرم بها واحتواها ، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها . . . فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم ، وسماها «سنة نساء» ؛ لأنها كانت راحة من العناء ، مع أنها كانت راحة المتربص المتوفز ، وكانت راحة يتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك . .

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير . .

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شىء ، وما بقى من الطبيعة للرياضة فقد أتمته الرياضة بعزيمة الجبابرة التى لا تلين . باستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب ، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب أيامًا بعد أيام . .

لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس فى ساعة الموت أنها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير : «لقد طلبت القتل فى مظانه ، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى . . ولقيت الزحوف وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء» . .

وأقرب شىء أن يلاحظ فى سيرة خالد - من نشأته إلى وفاته - أن هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعًا بالشر والسوء ، ولا ولعًا بالضغينة والبغضاء . فكانت عداواته كلها عداوات جندى مقاتل ، ولم تكن عداوات مضطغن آثم . . ولم يعرف قط عنه أن حمل الضغينة لأحد من الناس ، ولو أنه اضطغن على أحد لكان أحق

الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطاب ؛ لأنه عزله وشطر ما له وأبقاه فى العزلة سنوات ، ولكنه لم يعمل عملاً واحدًا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه . وقد سامحه والتمس له المعذرة وعلم أنه قد أراد وجه الله بما حاسبه عليه ، وكان أشد ما قاله فيه : «الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب إلىّ من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه» ، وربما ذكره وهو غاضب فسماه «الأعيسر ابن أم شملة» فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المغلوب فى لعبة لا فى غرض عظيم يقعد ويقيم . .

وقد يمكن كثيرًا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة ، وإنها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء فى سبيل الغيرة القومية أو فى سبيل الإيمان والضمير ، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع فى نفسه على مزاج يألف القتال ولا ينفر منه . وليس فى المجتمعات الإنسانية التى تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث إلى النفرة من القتال ، ولن تزال القدرة على الحرب شرفًا وشجاعة إلى آخر الزمان ، مادام فى بنى الإنسان من يحمل السلاح للعدوان والبغى والتلصص والمراء ، فيتقيه بنو الإنسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والإنصاف .

وعلى كثرة من قتل خالد فى حروبه لم يكن يقتل أحدًا قط وهو يشك فى صواب قتله وإن أخطأ وجه الصواب ، فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره فى «نهر الدم» كانوا يستحقون عنده القتل قربانًا إلى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والإصرار .

أما إذا شك فى صوابه فهو يستكثر المساءة إلى رجل واحد فضلاً عن الجحافل والقبائل ، ويسبق إلى الرفق رجلاً كأبى عبيدة عرف طوال حياته بالرفق والرحمة والأناة . فيقول له وقد تناول رجلاً بشىء : «إنى لم أرد أن أغضبك ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة أشد الناس عذابًا للناس فى الدنيا» . .

فهو مطبوع على عداء الجندى المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر فى صغائر العيش وسفاسف الأمور .

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذى يبتلى به من لا يعقلون هجومًا إلا كهجوم الريح أو فرارًا إلا كفرار الحيوان .

فقد كان يقدم عن علم بمواضع الإقدام ؛ ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة . . وإنما هزم فى حنين مرة واحدة وهو مسئول عن اليوم كله كما قدمناه .

أما إذا وجب التراجع ، فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة وأن يدبر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذى يصون الكرامة ويصون الدماء ، ويكون المخدوع المغلوب فيه هو الذى أمكن التراجع من بين يديه ، وقد كان فى وسعه أن يبطش بالمتراجعين جميعًا قبل أن يفلتوا من أوهاقه المطبقة عليهم .

هذه هى الجندية البصيرة بمزاياها فى الكفة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هى الجندية الغالبة أبدًا وهى فى إقدام أو فى إحجام .

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية . فمن أقواله : إن الجهاد شغلنى عن تعلم القرآن ، أو قراءة كثير من القرآن . .

وعذره فى ذلك حين قال ذلك المقام أنه لم يفض فى ملازمة النبى غير أوقات جد قصار ؛ لأنه شغل السنوات الثلاث التى قضاها مع النبى بعد إسلامه وهو بين السرايا والغزوات .

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه ، ولكنها الخطب والكتب التى يستطيعها العربى الفصيح الناشئ فى كنف الفصحاء ، ثم هى كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه فإذا قال كلمة أو كتب سطرًا فكأن يكتب بحسام لا بيراع .

كتب إلى مرازبة فارس فقال : «الحمد لله الذى فض ملككم وأذل عزمكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا فابعثوا إلى الرهن واعتقدوا منا الذمة وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذى لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا» . .

وخطب فى المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق إلى الشام فقال : «لايختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ،

والأجر على قدر الحسنة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء فيه مع معونة الله له» .

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف ، كما قال حين سمع صائحًا فى المعسكر يصيح : ما أكثر الروم وأقل المسلمين . .

فلم يكن أسرع منه إلى أن يقول : «بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين . إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان» .

فكل كلمة منه فإنما هى ضربة سيف فى صورة حروف ونبرات .

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس أنه على التشابه بينه وبين عمر كان فى عمر جانب فكاهة وإن كانت خشنة غليظة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب فى عمله أو كلامه .

وقد كان الأدنى إلى الظن - عند النظرة الأولى - أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذى نشأ فى مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذى نشأ على العسر أو اليسر القليل .

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها . .

لأن الإعسار فى الواقع أعون على الفكاهة من اليسار . ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة فى أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كأنها ضرب من التعويض والمقابلة ولا غرابة فى ذلك حيث ننظر إلى منشأ الفكاهة فى جملتها ، فهى على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة ، وما أكثر المفارقات فى حياة المعسرين .

ولعلنا نبلغ مقطع القول فى هذه الملاحظة حين نقول : إن الموسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة . وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول . رحم الله خالدًا . . إنه كان جنديًا وكفى!

لكنه قد عوض فى جانبه الواحد عن جوانب عدة فى الآخرين ؛ لأنه قد رزق الجندية فى طرازها الأول ، ورزق منها وحده ما يكفى عشرة من جنود التاريخ المبرزين .

١١ نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في مدينة حمص - زهاء سنوات أربع - لم يفارقها قليلاً إلا ليعود إليها .

وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون .

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير يطالبه بها في حربه وسلمه حيث كان . فمات من أولاده نحو أربعين في سنة الطاعون .

ولم ترو لنا كلمة قالها خالد في موت هؤلاء الأبناء الكثيرين ، وهو الرجل الذي كان التبشير بغلام عنده فرحًا من أكبر أفراح الحياة . فكأنما ألف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب . فهو لا يلقاه أبدًا لقاء غريب مريب . .

* * *

وتعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم المهاجر من حزب علي وعبد الرحمن من حزب معاوية . . فمات المهاجر في صفين ومات عبد الرحمن مسمومًا على ما قيل ؛ لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية العهد . فسقاه معاوية السم على يد الطبيب ابن أثال . .

وما هي إلا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير - صاحب الموت والقدر - فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء أخيه .

وانتهت حياة خالد رضي الله عنه نهايتها العجيبة ، بين سنة إحدى وعشرين واثنتين وعشرين .

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه - كما قال - بعد أن شهد نيفًا وخمسين زحفًا في نجد والحجاز والعراق والشام ، ولم يبق في جسمه مصح من كثرة الجراح .

وليس هذا كل ما في موته من «غير المألوف» أو غير المنظور ، فإنه مات ولم يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير . وليست هي بالسن التي تنتهي بها الحياة بغير مرض شديد ، فإن كان قد ألم به مرض عارض غير مميت في جملة أطواره

فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء ، والفتور من الراحة ، وذلك الاضطراب الذى كان يفزعه فى نومه وينتقع منه لونه إذا غضب أو ثار .

ولم يوجد فى بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفه للجهاد فى سبيل الله . فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظننا به . . ونكس مرارًا وهو يسترجع كلما رفع رأسه ، ثم قال : كان والله سدادًا لنحور العدو ميمون النقيبة .

❋ ❋ ❋

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة . قال لأمه :عزمت عليك ألا تبيتى حتى تسودى يديك من الخضاب .

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر : «أرسل إليهن فانههن . فقال دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة . على مثل أبى سليمان تبكى البواكى» .

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى : لم استخلفته على أمة محمد؟ لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت خالدًا ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى : من استخلفت على أمة محمد؟ لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول لخالد : سيف من سيوف الله سله الله على المشركين . .

ولعمرى ، إن «سيف الله» قد استحق هذه التزكية وهو فى الغمد كما استحقها وهو مشهور .

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنًا فى سيرة خالد بن الوليد .

إن الحوادث قد وعظته بها فاتعظ فى صبر وأناة . فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة ، ولو شاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه ، وهو الرجل الذى طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين .

نعم ، إنه لا فتنة وابن الخطاب حى كما قال ، وإن الفتنة إنما تخشى «إذا كان الناس بذى بلى» أو فى معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الإمام .

ولكن إدراك هذا وحده مفخرة من المفاخر، وليس كل إدراك كهذا الإدراك بالذى يغلب الهوى ويقمع النزوات .

فلا جرم يرشح الفاروق خالدًا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة، ولا جرم يعرف سيف الله فى الغمد كما عرفه وهو فى يمين البطل الجسور . فإن يكن خالد مخشى المزاحمة على الخلافة فى ظن من الظنون فليس هو بمخشى عليها وقد وصلت إليه معهودًا إليه خالصة من الزحام، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية، وقرب ما بينه وبين الله .

* * *

لقد مات – نصير الموت – مطمئنًا إلى نهاية حياته، لا يكره منها إلا أنها انتهت به على فراشه .

ولكننا – أبناء آدم –نكره كثيرًا ما يكون من حقنا أن نتمناه . وما كان لخالد أمنية قد بقيت له فى ميدان الكفاح يتمناها . لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع، ولم يبق له إلا أن يعرفوه فى ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور . . وقد عرفوه على هذه الصفة فى ميدان حمص – ميدان السلم والتسليم – خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم .

الفهرس

الموضوع | الصفحة